

شذرات من السيرة الرشدية

سيرة مسرحية

تأليف : عزالدين المدنى

اهداءات ٢٠٠٤

المجلس الأعلى للثقافة

شذرات من السيرة الرشدية

سيرة مسرحية

تأليف

عز الدين المدني



شخصيّات السّيرة المسرحيّة

أبو الوليد محمّد بن رشد : فيلسوف الأندلس والمغارب

محمّد بن رشد : ابنه

آمنة : ابنته

ابن طَلْموس : تلميذه

موسى بن ميمون(الفيلسوف): تلميذه وصديقه

أبو يوسف يعقوب : السّلطان الموحّدي الملقّب بالمنصور

ابن عطيّة : وزير السّلطان

ابراهام بن شَبْروط : وزير السّلطان

والي قرطبة شقيق السّلطان

شيخ الرّواة وزملاؤه

عريف الميليشيا وأعوانه

الزّجّال ابن قُزْمان وراقصاته

تجّار وشاهبندر والتّاجر ابن شعلان

القسّان هنري دي رانس وتشرلز سكوت

باعة متجولّون ورهبان نصارى ومجانين وأحمرة وثيران وأبواب. تتكلّم

الفضـــاء

فضاءات من المخيال الأندلسي والمغاربي والعربي

الزّمان

الزّمان العربي

المخيال

مخيال يرفض الآني والظّرفي ليعانق الدّوام

استفتاح

شيخ الرّواة : باسم الله الرّحمان الرّحيم، وصلّى الله على سيّدنا محمّد خاتم النبيّين والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، حدّثنا أبو العبّاس محمّد بن يعقوب

راوٍ ثان : حدّثنا وهب بن جرير

راوٍ ثالث : حدّثنا شعبة عن معاوية بن قرّة

راوٍ رابع : قال : سمعت أبي يحدّث عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم

شيخ الرّواة : قال : لا يزال ناس من أمّتي منصورين لا يضرّهم من خذلهم حتّى تقوم السّاعة.

الرّاوي الثّاني : سمعت موسى بن هارون يقول :

الرّاوي الرّابع : سمعت أحمد بن حنبل يقول وسئل عن معنى الحديث

شيخ الرّواة : فقال : إن لم تكن هذه الطّائفة المنصورة أصحاب الحديث فلا أدري من هم.

استدراك على الإستفتاح

راوٍ خامس يدخل المجلس

شيخ الرّواة : تقول إنّك تحفظ حديثا نبويّا شريفا لا نظفر به في صحيح البخاري رضي الله عنه...

الرّاوي الخامس : ... ولا حتّى في صحيح مسلم!

الرّاوي الثّاني : هذا عجب! الأحاديث النّبويّة الشّريفة كافّة قد جمعت وصنّفت وسطّرت في ستّة كتب...

الرّاوي الخامس: ... ولا في موطّإ مالك أيضا!

الرّاوي الثّالث : لم يبق لنا شيء منها نتداوله في هذا الزّمان. نحن على قاب قوسين أو أدنى من قيام السّاعة !

الرّاوي الخامس : ... ولا في مسند أحمد !

الرّاوي الرّابع : ما هو إسنادك؟ من أخبرك به؟ هل سمعته أم قرأته؟ أين وكيف ومتى؟ تكلّم !

شيخ الرّواة : اقترب ولا تخش. أنت الآن في مجلس المحدّثين الصّادقين الثّقاة. نحن خبراء في سلاسل الرّواة، في العنعنة، في مصادر المخبرين، في الرّجال، في المتن!...

الرّاوي الثّالث : ... في من يتلقّى النّصّ وفي من يبثّ ويذيع...

الرّاوي الثّاني : ... في النّصّ وشروط النّصّ، في ظروف النّصّ وأسباب النّصّ، في صحيحه وعواليه، في وضعه وتدليسه !

الرّاوي الرّابع : تكلّم ! أنا كلّي استعداد لأتلقّاه عنك دون أدنى تحريف إذا كنت صادقا أمينا

الرّاوي الثّالث : لا يخاتلك سهو ولا نسيان ولا كذب لأرويه عنك بسلاسل مخبريك...

الرّاوي الثّاني : إذا كنت ثقة ثبتا...

الرّاوي الثّالث : إذا كنت مطيعا لأولي الأمر...

الرّاوي الرّابع : إذا كنت عدوا لدودا لأهل الرّأي والزّندقة والكفر...

شيخ الرّواة : إذا كنت عدلا ! اذكر لنا عنعنتك حتّى نقف على صحّة كلام مخبريك، حتّى نستفيد وحتّى نفيد !

الرّاوي الخامس : يا أهل المجلس، لا يحلو ذكر الحديث إلاّ بعد تناول طعام العشاء، بعد أن نأكل معا ما كتبه الله لنا، وأن نشرب، وأن نستريح. . .

شيخ الرّواة : صدقت، انضم إذن إلينا، وادخل في جماعتنا، واتحد معنا.

مأدبة الرّواة

الرّاوي الثّالث: . . . أجهدنا هذا اليوم! وقد طوينا الفضاء أميالا لا يحصيها إلاّ الله! فلم توقفنا إلاّ الصّلاة بين المسجد والمسجد. . .

الرّاوي الرّابع: صلّينا جميع الصّلوات دائما في أوقاتها.

الرّاوي الثّاني: صلّينا صلاة المغرب، وقبلها صلاة العصر، ولم نأكل.

الرّاوي الثّالث: صلّينا صلاة الظّهر تحت شمس الحرّ الشّديد، ولم نأكل، ولم نشرب.

الرّاوي الرّابع: صلّينا صلاة الصّبح، ولم يدخل إلى بطوننا إلاّ الهواء البارد وغبار الطّريق!

شيخ الرّواة: قل الحمد لله في كلّ حال وعلى كلّ حال!

الرّاوي الرّابع: اعذرني يا شيخي، لقد دخت من شدّة الجوع والعطش، دخت، هلكت! أرى مدينة كلّها جزّارين، وقصّابين، وذبّاحين، وسلاّخين، أرى مدينة كلّها مسالخ، كلّها أسواق لحوم

وشحوم، أرى رؤوسا معلّقة، أرى دماء جارية. أرى النّار والجمر والدّخان.

الرّاوي الثّاني : في جوفي قحط لا تستطيع الأندلس ولا المغرب ولا حتّى إفريقيّة بخيراتها العميمة الزّاخرة أن تشبعني، ولا أن تروي عطشي الصّادي، وأيّ قحط ! هل ترى ما أرى؟ إنّي أرى ثورا !

الرّاوي الثّالث: في صدري شيء غامض مثل الغضب على المخالفين لنا، مثل النّقمة على المعترضين علينا، مثل السّخط على المختلفين عنّا، مثل العنف، مثل الإنفجار. . .

شيخ الرّواة : هل طعامكم الكلام ؟ انهض أنت ! ضع المائدة أوّلا، وأنت يا ضيفنا، وزّع الأقداح على مراتب أهل المجلس ثانيا، وأنت اتبع الطّعام بالخبز النّاضج المفوّح اللّذيذ ثالثا. وأنت هات التّوابل والملح والخلّ من جراب السّفر. كيف لك أن تنسى الماء العذب الزّلال؟ أين الفاكهة؟ يا أكرم من أعطى، يا

أرحم من سئل! مدّوا أيديكم، وقولوا باسم الله، والحمد لله على كلّ ما وهب وكتب! توكّلوا على الله . . .

الرّاوي الثّاني : هل أحدّثكم عمّا فعلته اليوم؟

شيخ الرّواة : كل ولا تتكلّم!

الرّاوي الثّاني : لقد انتخبت أربعين حديثا في جهاد الكفرة والنّصارى واليهود والشّكّاك والملاحدة والفلاسفة والشّعراء، كتبتها عن أربعين شيخا موحّديّا من أعظم أشياخنا المحدّثين، كنت أنتقيتها في أربعين مدينة موحّديّة من مدن المغرب والأندلس. . .

شيخ الرّواة : إنّهم سبقوك، فالتهموا كلّ شيء. لن يتركوا لك إلاّ نواة الزّيتون ! كنت تقول : إنّي أرى ثورا ! . . .

الرّاوي الثّاني : أطلب من الله عزّ وجلّ أن يرزقني ثورا ضخما فاخرا عظيما مثل الجمل، مثل فرس البحر، بل مثل الفيل، من تلك الثّيران

الهائلة، الرّاعية في مروج قرطبة، السّمينة، الرّاوية من مياه الوادي الكبير. . .

شيخ الرّواة : وهو على كل شيء قدير ! أراه ثورا متّقد العينين، مترصّد الأذنين، عالي القرنين، شوكته أحدّ من شفرة السكّين، أسود الجلد كجلمود ليل، لامع السّواد، يا أرحم من سئل، يا أكرم من أعطى !

الرّاوي الثّالث: . . . قوي الأكتاف، ضخم الأوراك، ثابت الحافر، يتماوج لحما وشحما، خواره تتجاوب أصداؤه بين المغرب والمشرق.

الرّاوي الرّابع : هذا ثور الثّيران، والله أكبر ! لا تغترّوا بصبره، فهو مشاكس، مُنازل، غدّار مثل السّبع الضّاري ! لا تقتربوا منّي، فإنّي سأحمل عليكم حملة سيّدنا عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه بسيفه البتّار ذي الفقار على رأس الغول وجماعته الفلاسفة ! والله أكبر !

شيخ الرّواة : بل هذا هو الجان ! أعوذ بالله من شرّ ما
خلق ! ماذا ستفعل بهذا الدّجّال؟

الرّاوي الثّاني : لسوف أصارعه صراع النّدّ للنّدّ، صراع
المؤمن للفيلسوف الملحد، صراع المسلم
للنّصرانيّ، لليهوديّ، للمرتدّ، إلى أن أجعله
يتقهقر، ويخرّ على ركبتيه وينهزم، والله
أكبر !

الرّاوي الرّابع : وبعدها؟

الرّاوي الثّالث : أعلّقه بيد، وأذبحه بيد، من الوريد إلى
الوريد، على سنّة نبيّه ورسوله عليه أزكى
السّلام، والله أكبر !

الرّواة الثّاني والثّالث والرّابع : والمكافأة؟

شيخ الرّواة : أكافئك بالمخّ، وزد عليه اللّسان والقلب
والقرنين !

الرّاوي الثّاني : وجائزتي؟ وأنا مريدك، وحافظ أمرك،
وأخوك في هذه العصابة !

شيخ الرّواة : أنت لك العين، والكبد، ولحمة الظّلّ ! . . .

الرّاوي الثّالث: أعدل يا شيخنا، وأنا شوكتك في أشداق أعدائك !

شيخ الرّواة : لك الأوراك والأكتاف والضّلوع والكوارع. . . وأنا؟ أنا شيخكم وأميركم!
ما هو نصيبي من هذه المأدبة؟

الرّواة الثّاني والثّالث والرّابع : لك قطعة الشّرف يا شيخنا :
العين اليمنى والأذن اليسرى والذّيل :
رموز السّعد والعزّ، ولا إلاه إلاّ الله !

الرّاوي الخامس: وأنا؟

الجميع : لك الحوافر ! عربون وفائك المنتظر !

شيخ الرّواة : هلمّوا يرحكم الله، تقلّموا بسكاكينكم. . .

الرّاوي الثّاني : اسخلوه

الرّاوي الثّالث: قطّعوه

الرّاوي الرّابع : خذوه فغلُّوه ثمّ الجحيم صلّوه ثمّ في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه.

الرّاوي الثّالث: اِلتَهِمُوه.

الرّاوي الثّاني : انهشوه، ولا تبقوا منه شيئا!

الرّاوي الخامس : بعد هذه ا لمأدبة، وقد أكلتم وشربتهم،
هل أروي لكم الحديث؟ إذن انصتوا : ولقد
كنّا روينا عن سعيد عن قتادة عن سعيد بن
المسيّب أنّ سعد بن عبادة قال : من مات
محبّا فله أجر الشّهادة.

الرّاوي الخامس يفرّ من بين أيديهم...



الباب الأول

الخبر اليقين عن الخليفة
أبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي



[رواية أولى]

استعداد ليوم الصّيد في قصر مرّاكش

أبو يوسف يعقوب : نعم ثمّ نعم أوظّف عليهم ضريبة جديدة، ولن أتراجع في قراري. . .

الوزير ابن عطيّة : هذا ما كنّا نترقّبه منك يا مولانا ! قرار تاريخيّ مناسب اتّخذته في ظرف تاريخيّ مناسب ! النّاس سيفرحون. . . .

أبو يوسف يعقوب : أين كاتب الدّيوان؟ أسمّي هذه الضّريبة الجديدة ضريبة المجهود الحربي. أصدر هذا القانون وانشره في مراكش وتلمسان وفاس وقرطبة وتونس على الفور، اسرع ! أين المرايا؟

ابن رشد : دون سواهم من النّاس؟ يتحمّلون وحدهم أعباء الحرب؟ والآخرون، علام لا يدفعون شيئا؟ . . . هل تستقبل ابراهام حتّى يشرح لك. . . ؟

أبو يوسف يعقوب : لا وقت للثّرثرة ولا للفلسفة. . . هات المرايا! أو ما زلت تعترض على قراري يا أستاذي؟ إنّي خارج إلى الصّيد. هناك، في سفح جبل الأطلس بقر وحشيّ أسود مثل السّباع ضراوة وعدوانا. إنّي على أهبة لقتاله. . . هل تصحبني؟

الوزير ابن عطيّة : دقّوا الطّبول! انفخوا في الأبواق! هذا هو يوم الصّيد لمولانا. . . انتهت المناقشة يا قاضي القضاة. . . امسك المرايا جيداً، يا مملوك!

ابن رشد : تسمّع يا أخي السّلطان. . .

أبو يوسف يعقوب : هل أقنعتك؟

ابن رشد : لم تقنعني! حكم الإسلام رحمة لا قسوة! قبل أن تنصرف، أقول لك كلمة واحدة. . .

الوزير ابن عطيّة : في هذه اللّحظة؟ في هذه اللّحظة الّتي سيخرج فيها مولانا للصّيد، ستشرح لنا

كتاب الفلسفة الأولى لمعلّمك الّذي
يعبد الأوثان، ذاك اليوناني الكافر
أرسطو. . . هيّا، توكّل على الله! نحن
نستمع إلى شروحك المستفيضة! أم
ستقدّم لنا رأيك الوجيه في العقل
الفعّال، والعقل الهيولاني، بما أنّك
على مذهب الطّبيعيّين والماديّين؟ . . .
وما العقل المفارق؟ وما هو قولك
الكريم في العقل المستفاد في علاقته
بما وراء العرش؟ وفي هذه العقول
الطّائفة كافة الّتي لا عقل لها ولا تدبير!؟
بالله، ألا تدع مولانا يستريح من أعباء
الحكم، هذا النّهار؟ البشريّة قاطبة من
الصّين إلى المغرب الجوّاني قد ملّت
من التّفكير! إلاّ أنت؟؟؟ حدّث النّاس
عن ألعاب السّرك أفضل، سوف
يستمعون إليك! دقّوا الطّبول! انفخوا
في الأبواق! أخبروا أشياخ الموحّدين

بـأنّ مولانا على أهـبـة الـخـروج. . .
اسرجوا الخيول! قل لـذاك الـيـهـودي
الأزرق : تنحّ عن ناظر مولانا !

ابراهام بن شبروط : أنا وزير مثلك يا ابن عطـيّة! رغم عار
لباسـي الأزرق الّذي فرضته علـيّ هذا
الصّباح! دعني أكلّم مولانا! . . .

الوزير ابن عطيّة : وزير؟ صحيح، بالأمس كنت وزيـرا!
أمّا اليوم، صرت شخصا نـكـرة أزرق
اللّون من بين السّواد الأعظم من الرعيّة!
نصيحتي الـثّمينة : اعتصم بدارك خير
لك من أن نجعلك ألعوبة الـصّبيان في
السّرك! لكنك، للأسف، لا تضحـك
حتّى الحمقى والمغفّلين بل تبكيهم بكاء
التّماسيح! . . . اسمعني، ولا تنس أن
تحفظ مزامير داود!

ابراهام بن شبروط : الويل كلّ الويل من سلطنة الجهّال!

ابن رشد : يا أخي السّلطان، ألحّ عليك أن تستقبل

ابراهام بن شبروط لتعرف وجهة نظره،
على الأقلّ. . .

أبو يوسف يعقوب: . . . لقد غضبت عليه. . .

ابن رشد : لتعلم ما هي شكواهم ومطامحهم. . .

أبو يوسف يعقوب: . . . مللت، إنّي مللت من الشّكايات
والشّكوى! أليس لديهم إلاّ التّشكّي ؟
سبحان الله! قلبي امتلأ هكذا. . .

ابن رشد : . . . قلبك أرحم من لسانك. . .

أبو يوسف يعقوب: . . . يتصنّعون المسكنة والمذلّة،
ويتكلّفون التّشكّي والتّبكّي دائما. . .

ابن رشد : . . . لقد خلق الإنسان باكيا شاكيا! . . .
مهما اختلفنا عنهم واختلفوا عنّا، فإنّنا
وإيّاهم نعبد نفس الإلاه الواحد! مدّ
يمينك الكريمة إليهم، وخفّف عنهم ما
يثقل كاهلهم، فالحلم من أخلاق
السّلاطين! انظر إليهم، كما تنظر إلى

سواهم بعين المساواة والعدل! عزّز جانبهم فإنّهم يعزّونك، انصرهم فإنّهم ينصرونك...

الوزير ابن عطيّة : يا قاضي القضاة! ما هذا الكلام؟ لم يأت الشّرع الشّريف بالمساواة بين المسلمين واليهود، فيما أعلم! لكنْ، تحدّث عن إقامة العدل ولا حرج!... اليوم، نعم اليوم فقط، أدركت أنّك لا تفهم السّياسة مطلقا! على أنّك، ربّما، تفهم الفلسفة ! لكن، اخبرني : من يعرفهم أكثر منّا؟ نعاشرهم ويعاشروننا منذ الدّهور الأولى، وكلانا يعرف محاسن الآخر ومساويه! أليس كذلك؟... هم دائما مع الأقوى! لا قدّر الله ـ لو ينتصر علينا الطّاغية الرّومي الأذفونش لعنه الله لسوف ترى هذا ابراهام بن شبروط الّذي رفعه مولانا إلى أعلى علّيّن، الّذي تدافع عنه، أوّل من يتنكّر، ويخدع، ويخون!

أبو يوسف يعقوب: لقد امتنع اليهود من المساهمة في مجهودنا الحربي، بينما عندهم كنوز الدّنيا !

الوزير ابن عطيّة : والله، يا مولانا، لقد أتعبتني اللّيلة البارحة. . . مشكلة فلسفية سهّدتني وأرّقتني!

ابن رشد : أنت يا ابن عطيّة، يا بهلوان سرك الأسراك! مشكلة فلسفية حرمتك من النّوم؟ لا إلاه إلاّ الله!

الوزير ابن عطيّة : نعم مشكلة السّببيّة! وهل توجد مشكلة أصعب منها؟ صحيح أنّك بيّنتها في أوراقك المتهافتة ضدّ حجّة الإسلام أبي حامد الغزالي. لكنّك لم تقنعني، لأنّك ألغيت المعجزة الإلاهيّة ! ألغيت : كن فيكون! وعلى كلّ، فلقد أسائل نفسي : أيّهما السّبب الأوّل : البيضة أم الدّجاجة؟ فإذا كانت البيضة هي السّبب الأوّل يا صاحبي، فعلام تبيضها

الدّجاجـة؟ أمّا إذا سلّمنا واعترفنا بـأنّ
الدّجاجة هـي الـسّبـب الأوّل، فعـلام
تفقسها البيضة إذن؟ مشكلة المشاكل،
وهكذا دواليك، وهلمّ جرّاً إلى أن تنزل
المعجزة وتقرّر ما الأوّل وما الثّاني . . .
وابراهام بن شبروط دجاجة زرقاء يجب
تريیشها، وسلخها، وأكلها!

ابن رشد : جعلتني أمينا لسوق الـدّجاج، يا قليل
الحياء!؟

أبو يوسف يعقوب: احترم أستـاذي يـا ابـن عـطـيّة! هـيّـا
لنخرج . . . ضريبة المجهود الحربـي!
لنملأ من جيوبهم خزائن الدّولة يا ابـن
رشد! لنملأ، وإلاّ، فلا بدّ من معجزة!

[رواية ثانية]

أمام قاعة الرّياضة البحثيّة في قصر مرّاكش

شيخ الروّاة : أيّها الجمهور، المشهد السّابق قد صنعه رواة كذّابون، والعياذ بالله! إذ لا يعقل أن خاطب ابن رشد الخليفة المنصور بيا أخي السّلطان! فهل كان شقيقه أم صديقه؟ بل كان طبيبه الخاصّ! أمّا الإشارة إلى كبير أحبار اليهود في قرطبة ابراهام بن شبروط فهي محض اختلاق! فلقد توفّي بالأندلس قبل قرن من ميلاد قاضي القضاة ابن رشد! وكيف يتجرّأ ابن رشد ويطلب من المنصور أن يتسامح مع اليهود؟ هذا تهوّر وغرور شديد! أمّا الصّحيح، فسوف ما تشاهدونه. . .

الوزير ابن عطيّة : لا تدخل، أمنعك من الدّخول عليه كما منعت ابراهام بن شبروط. ألا تسمع

صليل السّيوف؟ إنّه يتدرّب على المبارزة! انظر إليه من خلال الزّجاج. . . وقبل كلّ شيء، علام جئت مبكّرا هذا الصّباح، وعيوننا ما زالت مغمضة؟ اللّهم نسألك حسن العاقبة. . . أنت تعلم جيّدا أنّه مشغول بلياقته البدنيّة طوال ساعة، بأمرك أنت طبيبه الخاصّ، حتّى لا تتكلّس عضلاته من كثرة الجلوس ومن شدّة الإستماع إلى أمثالك. . .

ابن رشد : جئت لأمر لا يعنيه إلاّ هو!

الوزير ابن عطيّة : ألاحظ أنّك تتدخّل في السّياسة أكثر مما يجب. . . بالأمس، جئت لتشفع في اليهود لكي لا يدفعوا ضريبة المجهود الحربي، واليوم جئت لأيّ أمر خطير؟ لنجلس قليلا. . . قل لي : أو نتدخّل نحن في فلسفتك السّياسيّة؟ وكيف تشرح كتاب الجمهوريّة؟ ولم

تلخّص كتاب السّياسة لسيّدك أرسطو؟
تركناك تقول ما تشاء في كتبك، فاتركنا
إذن نفعل ما نشاء في سياستنا، وأرحنا!
أتزاحمني في منصبي؟

أبو يوسف يعقوب: أنا قادم بعد لحظات... يا وزير، لا
ترفع صوتك أمام أستاذي! مزيّن،
مزيّن، أين أنت؟ لا تنظر إليّ يا ابن
عطيّة، إني عريان! هذا الحمّام السّاخن
قَد أراحني من جميع المتاعب.

ابن رشد : اطلب منك أن تعلن العفو عن الثوّار
البرابرة الّذين اعتصموا بجبال
الشّارات...

أبو يوسف يعقوب: ماذا؟ العفو؟ أهكذا تباغتني في هذا
الصّباح بهذا الطّلب!

ابن رشد : ... وأطلق سراح زعيمهم آيت ياسين
من الحبس المضيّق، واستمع إليه،
وقرّبه إليك، وشاوره...

أبو يوسف يعقوب: تصعقني هذا الصّباح بهذه الطّلبات
الصّواعق يا أستاذي؟ إنّك تزلزلني،

وتدكّني دكّا، وتحطّمني، وتمزّقني !
العفو؟ تدكّني ! نستسلم؟

ابن رشد : لا تغضب كلّ هذا الغضب، وإلاّ
فستصاب بنوبة قلبية! استرح قليلا،
تنفس مليّا بملء رئتيك... لا داعي
لكل هذا الغضب. ابتعد يا مزيّن...

الوزير ابن عطيّة : لن تدخل القصر بعد اليوم، يا أبا
الكوارث والمصائب! يا عجوز الشّؤم!

أبو يوسف يعقوب: ما العمل؟ ما إن تولّيت الخلافة حتّى
هبّ كلّ متآمر من جحره، وظهر كل
دسّاس من وراء نفاقه، ونعق كلّ
معارض ومخالف... ما العمل؟

الوزير ابن عطيّة : تحاسب كلاّ من البربر المتمرّدين بما
اقترفت يداه. هذا زعيم الفتنة آيت ياسين
تعدمه عبرة لمن اعتبر، والثّاني تعذّبه
بالنّار الباردة، والثّالث تتجاهله، والرّابع
تشتريه بما لا يطيق من الأموال،

والخامس ترفعه إلى مكانة عالـيـة مـن
السّلطة، فيعجز عن تدبيرها أو يجـنّ!
فلا تسامح مع اليهود، ولا مع البربر،
ولا مع المستعربين النّصارى...
التّسامح ضعف وخذلان.

ابن رشد : معنى التّسامح عندك رديء، لـذلـك
تعتبرهم أعداءك؟ أليسوا هم أعضاء في
جسمنا؟ أليسوا هم سواسية كأسنان هذا
المشط أمام قوانين السّلطنة وأعرافها؟
يا أخي السّلطان ارفق بهم جميـعـا،
فالعفو قوّة السّلطان المقتدر...

أبو يوسف يعقوب: لم ينفع الرّفق، ويطول الـمـدّة ظنّوه
ضعفا، والطّمأنة استسلاما أمام شغبهم
وشرّهم، وتقريبهم إليّ حسبوه مصانعة
لزعمائهم، وشرحي المستفيض لهـم ـ
حتّى جفّ ريقي ونفد صبـري ـ رأوه
مناورة تخفي حيلة منّي ودهاء ومكرا!
من يحرّكهم؟ ما العمل؟ يا مزيّن، لعنة

الله عليك! قلت لك قص أظفاري لا أصابعي، أوجعتني، هلكك الله في جهنّم! ضع المرايا أمام وجهي. لقد سوّدته وشوّهته... يا حرّاس، احلقوا لحيته ورأسه وزيّنوه بالفحم!

ابن رشد : لطف الله بك يا أخي السّلطان، هات زجاجة الكحول، يا حارس! لم لا تشركهم في مجلس السّلطنة، هؤلاء البرابرة وأولئك اليهود، ولم لا تعترف بهم؟.... أليست هذه الدّولة سوقا للنّاس كافة مهما كانت دياناتهم أم هي مقصورة على...؟

الوزير ابن عطيّة : الله عزّ وجلّ واحد أحد، ومحمّد بن عبد الله عليه السّلام واحد لم يرثه أحد، وعمر بن الخطّاب رضي الله عنه حكمه واحد لم يقتسمه مع أحد. وهل أعطى معاوية بن أبي سفيان شيئا من ملكه؟ والخليفة أبو جعفر المنصور أو استسلم

لأبي مسلم الخراساني؟ ومتى فرّط الإمام
عبيد الله المهدي في شيء من إمامتـه؟
ونحن معشر الموحّدين سادة المغـرب
والأندلس وإفريقية، هل ترانا ـ يا ابـن
رشد ـ نمـنـح الـثّـوّار والمعـارضـيـن
والمختلفين عنّا ولو خردلة من سلطاننا؟
هل ترانا نعطي عصيّنا ليضربونا بها؟

شيخ الرّواة : أيها الوزير، هل تريد أن أبحـث لـك
عمّا يزكّي حججك الدّامغة ويؤيّدها من
كتاب الله الـعـزيـز، ومـن الـحـديـث
الـقـدسـي، ومـن الـحـديـث الـنّبـوي
الشّريف؟ أنا له يا مولانا !

أبو يوسف يعقوب: اسكت أنت. . .

[رواية ثالثة]

السّفينة السّلطانية على أهبة الإقلاع في رصيف الوادي الكبير بقرطبة

شيخ الرواة : رغم أنّ مولانا قد أسكتني، وتلك بلا شك سياسة حكيمة منه، فإنّي والله سأتكلّم اليوم! ولو لم يسكتني لأفحمت هذا ابن رشد الّذي ينظر إلينا باحتقار... بأيّ شيء أفحمه؟ بكلام الله الحكيم، وبمائة مختارة من الأحاديث النّبويّة الصّحيحة عن البخاري وعن مسلم. لكن لا علينا، ما دامت الفرصة قد فاتت! أمّا اليوم، فلن أمسك لساني الطّويل لأقول إنّي لا أعرف من حرّف المشهد الّذي رويته لكم منذ لحظات من بين رواة آخر الزّمان! فجعل مسرح الجدال بين الخليفة وابن رشد في قصر مرّاكش، والحال أنّ هذا الجدال قد احتدم بينهما على رصيف

نهر الوادي الكبير بقرطبة بينما كان مولانا
يتأهّب للسّفر إلى إشبيلية. فقرأت فاتحة
الكتاب بين يديه الكريمتين، وأشياخ
الموحّدين من حواليه، وكأنّ على
رؤوسهم الطّير، والطّبول تلعلع،
والأبواق تزمجر، والأعلام خفّاقة على
الصّواري، والقلاع منشورة، والرّياح
مواتية، والنّاس بين حقيرهم وعظيمهم
- في هذا اليوم التّاريخيّ المشهود -
يهتفون بحياة مولانا الّذي أبى إلاّ أن
يشرع على بركة الله في هذه الرّحلة
الإستطلاعيّة الميمونة المحفوفة
بالمخاطر! والله نسأل يا مولانا أن تنصر
الإسلام والمسلمين. . .

النّاس : آميـــن !

شيخ الرّواة : وأن تهزم النّصارى والكافرين!

النّاس : آميـــن !

شيخ الرّواة : والفيلسوف ابن رشد وعصابته المارقين الملحدين!

النّاس : آمين، يا ربّ العالمين!

ريّان السّفينة : إقلاع! إقلاع! إقلاع! حرّكوا المجاديف نحو اليسار!

الوزير ابن عطيّة : باسم الله مجراها ومرساها! بعد ساعة نصل إلى اشبيلية، مائة وخمسون مطربا وموسيقيا وراقصا وراقصة في انتظارنا. . . هل ترى يا مولانا من أرى؟

أبو يوسف يعقوب : هذا أستاذي أبو الوليد. . . لكنّه لم يرتد لباس السّفر. مرحبا بك، أهلا وسهلا. لا بدّ أن تصحبني هذه المرّة، وإلاّ فماذا سأقول؟ إنّك تتجنّبني؟؟؟ بعد مغادرة قرطبة وقبل الإرساء باشبيلية، في الأثناء أريد أن أطرح عليك ألف سؤال يهمّ كتاب «تدبير المتوحّد» لأستاذك العظيم ابن باجة!

الوزير ابن عطيّة : هذا ابن رشد سينغّص علينا نزهتنا الرّائقة. . . الإنسحاب أفضل من هذا المكان الّذي سيلوّثه بخزعبلات أرسطو. . . يا ربّان جهنّم، عجّل بالإقلاع، عجّل الله بك!. . .

ابن رشد : والله يا أخي السّلطان، لا أدري كيف تخلّصت من شيخ المدينة. . . فاعتذاراتي يا مولانا عن هذا الإبطاء. . . الحمد لله أنّي قابلتك قبل إقلاع السّفينة لأودّعك ولأدعو لك بالسّلامة والعافية. نعم إنّي أبطأت كثيرا، فكان لا بدّ من التّفاهم مع شيخ المدينة. . . وأنت تعلم يا أخي السّلطان أنّ سنّي العاليّة تشفع لي عندك حتّى أبقى هنا في قرطبة، فلا أطيق السّفر على هذه الأرجوحة الّتي تتقلّب على أمواج المياه. فحين أقف بقدمي على اليابسة أحسّ الأرض يخفق نبضها في قلبي، تفضّل، تناول هذه

الحبوب قبل إقلاع السّفينة... تقيك الدّوار والإغماء... نعم شيخ المدينة... لقد استشارني في هذا الإستعراض الدّيني....

أبو يوسف يعقوب: أيّ استعرض ديني؟

ابن رشد : أيّ استعراض؟ لكنّه استعراض النّصارى بمناسبة أسبوع الآلام، الأسبوع الّذي حوكم فيه المسيح عليه السّلام... حسب معتقداتهم طبعا.

أبو يوسف يعقوب: قلت ماذا لشيخ المدينة؟

ابن رشد : بعد نقاش طويل بيننا، أذنت له...

أبو يوسف يعقوب: ماذا؟ لا يعقل! لا أصدّق يا أستاذي! توقّف يا ربّان! لن أسافر إلى إشبيلية! كيف يعقل أن نأذن للنّصارى في تنظيم هذا الإحتفال الّذي كلّه صلبان في وجوه المسلمين عبر شوارع قرطبة!؟

الوزير ابن عطيّة : اسمع النّواقيس... هذه سبّة في وجوه وأسماع المؤمنين!

ابن رشد : لكنّ الأندلس احتضنت جميع الأديان!

أبو يوسف يعقوب: أولا تعلم أنّنا في حرب مع النّصارى، مـع الـطّـاغـيـة الأذفـونـش؟ أعـنّـي، ساعدني. . .

ابن رشد : قرطبة موطن أمان الأديان الثّلاثة، أمان! أمان! أمان يا أخي السّلطان! والسّلام يرفرف في سماء قرطبة! أمّا المستعربون النّصارى عندنا فهم يعادون الأذفونـش كما عادى نصـارى الـمـشـرق مـلـوك الحملات الصّليبيّة الرّهيبة! المستعربون هم رعاياك، فعليك أمنهم، وحمايتهم، والدّفاع عنهم! بل أكثر من ذلك، عليك احتضانهم وتفهّمهم حتّى يشعروا أنّهم قراطبة حقّا مثل المسلمين واليهود! لهم حقوق. . .

أبو يوسف يعقوب: هم خونة! ليس لـهـم أيّ حقّ في أيّ شيء!

ابن رشد : الخونة هم في كلّ دين، وفي كلّ قوم، وفي كلّ بلاد، وفي كلّ زمان!

أبو يوسف يعقوب: سأجبرهم على الإسلام كما أجبرت اليهود! وسأعرف عندئذ صادقهم من خائنهم!

ابن رشد : لا إكراه في الدّين! واعلم أنّ دولة النّبيّ صلوات الله عليه لم تكره أحدا من اليهود والنّصارى! رئيس الدّولة مثلك هو دائما فوق الأديان والمذاهب والنّحل إذا كان مسلما، لا سيّما إذا كان مسلما!

أبو يوسف يعقوب: سأهجّرهم إلى الأرباض، وأجبرهم على لباس الثّياب الزّرقاء، كما أجبرت اليهود! سأوظّف عليهم ضريبة المجهود الحربي!

ابن رشد : ستبقى إذن وحدك في قرطبة، وفي الأندلس، وحدك في جميع أنحاء المغرب؟ وحدك؟

أبو يوسف يعقوب : تعني ماذا؟ وضّح، غالبا لا أفهم ألغازك الفلسفيّة!

ابن رشد : أنت مسلم؟

أبو يوسف يعقوب: وهل في الله شكّ؟ نعم مسلم! وأنا سلطان مسلم! ودولتي مسلمة ومتعصّبة للإسلام!

ابن رشد : ستكره أهل الأديان الأخرى على اعتناق الإسلام؟ إذن أنت وحدك على دين الصّواب والحق، وهم على دين الكفر والباطل؟ من أدراك أنّهم ليسوا مؤمنين؟ . . . هل أنت ربّهم؟

أبو يوسف يعقوب : . . . .

ابن رشد : . . . وأنت على المذهب الظّاهري، أليس كذلك؟ ستكره إذن أهل المذاهب الإسلاميّة الأربعة الأخرى على مذهبك؟ ستظلّ أنت الوحيد على مذهب الإمام ابن حزم؟ أمّا مالك وأبو حنيفة والشّافعي

وابن حنبل، هم على الضّلال؟ على
الباطل؟ نكفّرهم؟ أليس هذا هو
منطقك؟ أجبني يا أخي السّلطان!
أجبني! وإلاّ فاضطهدني كما اضطهدت
النّصارى، وصادرني كما صادرت
اليهود، واشنقني إن لم أقل الحقّ كما
شنقت البربر! اشنقني حتّى أستريح منك
ومن عصابتكم المتعصّبة الظّالمة!

أبو يوسف يعقوب : أبعدوه عنّي!

ابن رشد : علام لا ترضى بمن يختلف عنك؟ باسم
الإسلام؟ باسم أيّ إسلام؟ أو تحتكر
الإسلام لأنّك سلطان؟ اتّق الله في خلق
الله، يا رجل!

أبو يوسف يعقوب : أسدّ أذنيّ ولن أسمع منك شيئا!

ابن رشد : ألا إنّ الإسلام بريء منك لأنّ الإسلام
أيسر من عسرك، وأعمق من فكرك
الضّيّق، وأرحب ممّا تتصوّر! ولسوف
يمنى مذهبك الظّاهري بالفشل الذّريع

لأنّك جعلت الإسلام مسلّحا، عدوانيّا،
إجباريّا! فيا ويل للإسلام من المسلمين!
هيّا اشنقني، ماذا تترقّب؟

شيخ الرّواة : عند هذا الحـدّ الّذي لا قبله ولا بعده
حدّ، ظهر كفر ابن رشد عـلـى رؤوس
الإشهاد! أنتم تشهدون عـلـى كـفـره!
فكيـف يـتـجرّأ على مجـادلـة مـولانـا
الخليفة؟ أليس هذا بكفر صريـح؟ لـم
تعلّمنا تقاليدنا الإسلاميّة السّمحة ذلك
بتاتا! فمولانا الخليفة هو الآمر الـنّاهي
في كلّ أمر، ونحن المطيعـون لـه فـي
كلّ شيء! إذا كان ظاهريّا، استخرجنـا
من كتب الحديـث الـشّريف ما يثـبـت
المذهب الظّاهري. أمّا إذا كان مالكيا،
جمعنا له من الحديث الشّريف ما يزكّي
مذهب مالك! ولئن كان على مـذهـب
أبي حنيفة النّعمان، فإنّنا على استعداد
دائما لتأكيد مذهبه الحنفي... عند هذا

الحدّ، قال له الوزير :

الوزير ابن عطيّة : سبحان الله يا ابن رشد، هـذا فسـق! هذا مروق! هذا كفر! اشهدوا أيّها النّاس على كفره وإلحاده! وأقيموا عليه الحدّ!

شيخ الرّواة : أعوذ بالله من هذه المجادلة الكـافـرة! لقد مرّ النّصارى بطراطيرهم، ومسوحهم السّوداء، وصلبانـهـم فـي وجـوهـنـا ونواقيسهم ترنّ في أسماعنا! يا جمهور! أهكذا تكون دولة الإسلام والمسلمين؟

يخرج ابن رشد مع شقيق السّلطان

الباب الثاني

بيان غيبة ابن رشد الحاضرة في كل فكر وفي كل مكان

في مصلى قرطبة

شـمس قـويّة ساطعة كشواظ من نار، وسمـاء زرقـاء صافية ممتدّة حتّى الأفق لا يوجد بها ولو غمام أبـيـض صغير.

حرّ لافح شديد، كأنّ الفصل فصل صيف قائظ، عرق متدفّق على الوجوده المصهودة، جهد في العيون، إنكسار في السّير، مذلّة في القعود، دموع... لباس كالح مرقّع. النّاس يؤدّون صلاةِ الإستسقاء في مـصـلّى قرطبة بإمامـة الخليفة المـوحّدي أبي يوسف يعقوب المنـصـور حتّى يستجيب الله تعالى لدعائهم فيمطر الأندلس بالغيث النّافع الّذي انحبس منذ شهور طويلة...

(لقطات مختارة من صلاة الإستسقاء)

أبو يوسف يعقوب: (قائما والـنّاس قعود) الحـمـد لله ربّ
العالمين، الرّحمان الرّحيم، ملك يوم
الدّين، لا إلاه إلاّ الله يفعل ما يـريـد.
اللّهـمّ أنـت الله لا إلاه إلاّ أنت. أنـت
الغنـيّ، ونحن الفقراء، انـزل عـلـيـنـا

الغيث، واجعل ما أنزلت لنا قوّة إلى حين، اللّهم اسق عبادك وبهيمتك، وانشر رحمتك، وأحيي بلدك الميّت.
(انقطاع ثمّ همهمة ثم)
اللّهمّ ثبّت أقدامنا، وخذ بأيدينا، واهْدِنَا إلى صراطك المستقيم (يجعل رداءه من شماله على يمينه ومن يمينه على شماله، فيقتدي به المصلّون وهم قعود) اللّهمّ لا تشمت بنا أعداءنا المستكلبين...

المصلّون : آمين.

أبو يعقوب يوسف : اللّهمّ أيّد جهادنا فيْ سبيل إعلاء كلمتك، وهي كلمة الصّدق.

المصلّون : آمين.

أبو يوسف يعقوب : اللّهمّ وطّد دعائم دينك، وهو دين عبادك الموحّدين المؤمنين الصّادقين المخلصين.

المصلّون : آمين.

أبو يوسف يعقوب : اللّهمّ لا تأخذنا بجريرة من عصاك وصار من الضّالين والظّالمين، يا أعدل العادلين.

المصلّون : اللّهمّ إنّا نلوذ بك ممنّ عصاك وشكّ فيك وكان من المستكبرين والشّياطين، يا أنصف المنصفين.

أبو يوسف يعقوب : اللّهمّ إنّا نتبرأ إليك ممّن عصاك وكفر بك وانقلب إلى صفّ المنحرفين والمخالفين والشّاذّين والزّنادقة والملحدين، واحشرهم في جهنّم فيها خالدين.

المصلّون : آمين يا ربّ العالمين.

أبو يوسف يعقوب : اللّهمّ اغفر لنا وارحمنا أنت خير الرّاحمين.

المصلّون : آمين يا ربّ العالمين، الله أكبر! الله أكبر! الله أكبر!

في ثكنة بقرطبة

أبو يوسف يعقوب يتفقّد التّحضيرات الأخيرة

أبو يوسف يعقوب : . . . أشكركم على ما تفضّلتم به جميعا . . من جميل التّرحيب وكريم الضّيافة، وأخصّ بالشّكر والثّناء أشياخ الموحّدين . . . لكنّ لا بدّ أن نتأهّب لإنقاذ هذه الأندلس اليتيمة من اليهود والنّصارى والأذفونش . . . هل لبّى النّاس نداءنا السّلطاني الشّريف، يا ابن عطيّة؟ لقد مضت عليه الآن ستّة شهور . . .

الوزير ابن عطيّة : . . . لا بدّ من متّسع من الوقت لتجنيد النّاس في بوادي المغارب والأندلس ومدنها، ولتسليح القبائل، والمتطوّعين المجاهدين في سبيل الله! ماذا فعلت يا شيخ هنتاتة؟

شيخ هنتاتة : لقد لبّينا نداء مولانا السّلطان. ولكنّ هذه التّلبية تستدعي وقتا طويلا، وأموالا

باهظة، وخيلا عتاقا، وسروجا مذّهبة،
وصفائح من فضّة، وأعلاما من حرير،
وخياما مطرّزة، وأقواتا وافرة، وتسليحا
عظيما، وخبراء في التّدريب على الكرّ
والفرّ، واختصاصيين في الدّعاية،
والمراقبة، والتّجسّس على العدوّ. . .
وهل فعلت شيئا يا رئيس فخذ أولاد
ياسين، وقد أعطينا تعليمات دقيقة في
هذا الغرض؟ إنّك رئيس أهمّ فخذ من
أفخاذ قبيلتنا هتاتة العتيدة! تكلّم!

رئيس فخذ أولاد ياسين : الله أكبر على من طغى وتجبّر! يا
مولانا السّلطان، لقد سمّاني والدي
رحمه الله طارقا على اسم طارق بن زياد
الفاتح العظيم. . . وإنّي لمستعدّ كامل
الإستعداد بسيفي هذا البتّار لإنقاذ
الأندلس اليتيمة، وللدّفاع عن
المغارب والمشارق، وللذّود عن
حياض دار الإسلام قاطبة، وللذّبّ عن
البقاع المقدّسة! فلنشن حربا ضروسا

على المغول والتّتار، ولنقلب الدّنيا
على رؤوس الصّليبيّين الإفرنج، ولنبادر
بمعارك شعواء على الأذفونش الرّومي
الكلب، الله أكبر! والعزّة للإسلام!
ولأولاد ياسين البواسل الشّجعان! فنحن
عجاج في ليل داج بل سراج وهّاج
تحت مطر ثجّاج ماؤه ملح أجاج!
لنزحف زحفات تلو زحفات ساحقة
ماحقة، والله أكبر، على كلّ من هبّ
ودبّ من اليهود والنّصارى، وعلى
النّاس أجمعين!!! الله أكبر!

أبو يوسف يعقوب: . . . أو تريد حقّا أن تقتلنا جميعا؟ . . .
لا بدّ أنّ هذا من أولاد أحمد أو
موسى! . . . على كلّ، بارك الله فيك
وفي هذه الحرب الخطابيّة
المشتعلة! . . . بعد هذا الحماس، أخيرا
ماذا فعلت؟

رئيس فخذ أولاد ياسين : لكنّي لم أفعل شيئا إلى اليوم يا
مولانا السّلطان! حسبي أن أقدّم هذا

الجندي الموحديّ البطل الشّجاع
المتطوّع المجاهد الكريم الّذي شهد
معركة الزّلاّقة الشّهيرة الّتي سحق فيها
الإسلام أعداء الله!

الوزير ابن عطيّة : ألا يبدو لكم معي أنّ هذا الرّجل
عجوز؟.. يخيّل إليّ أنّه هرب من
متحف وزارة الثّقافة! لقد جرت واقعة
الزّلاّقة، يا رجل، منذ سبعين سنة!

رئيس فخذ أولاد ياسين : استَاعِدْ! انظروا ما أجمل زيّه! وما
أحدّ سلاحه! استَارِحْ! لا تسقط على
الأرض، هيّا انهض يا رجل! لقد سقط
على الأرض يا مولانا السّلطان لأنّه
ينقصه شيء، هذا المجاهد المغوار في
معركة بدر حيث نصر الله المسلمين علي
أبي جهل! الله أكبر!

الوزير ابن عطيّة : وما ينقصه هذا الشّاب الّذي يبلغ من
العمر ثمانين حجّة، ولا شكّ!؟

رئيس فخذ أولاد ياسين : كلّ شيء! بل أقصد لا ينقصه إلاّ
مقبض السّيف، مقبض من فضّة ليكون
الجنديّ أجمل وأشجع! والمسؤول عن
توفير مقابض السّيوف هو هذا الرّجل
التّكنولوجي التّابع لي، صاحب عشيرة
الدّراوشة... هيّا، تقدّم، سلّم على
مولانا السّلطان، لا تختف وراء النّاس،
ابدأ سلامك باسم الله الرّحمان
الرّحيم...

صاحب عشيرة الدّراوشة : مولانا السّلطان، بصراحة، بالله
لا تعاقبني! ما باليد حيلة بصراحة! والله
إنّي بريء! ما إن سمعنا بالنّداء السّلطاني
الشّريف حتّى هرب بصراحة من التّجنيد
جميع أفراد العشيرة، بصراحة جميع
العشائر المجاورة، والقبائل الحليفة
والمتاخمة، بصراحة من رجال ونساء
وأطفال، هربوا بصراحة إلى جبال
الأطلس، وجبال الشّارات، وجبال

البيريني، بصراحة جميع جبال الدّنيا، ولم يبق أحد بصراحة إلاّ هذا العجوز... بصراحة، خطفته، وجنّدته، وألبسته الزّيّ القديم لجنود الزّلاّقة! والله، بصراحة يا مولانا السّلطان، إنّي بريء! هذا هو المسؤول، يا مولانا!... الفقيه يا مولانا بصراحة.

أبو يوسف يعقوب: لا بدّ من معجزة! لا حول ولا قوّة إلاّ بالله!

شيخ الرّواة : إنّي أصدقك القول يا مولانا! لقد حدّثني فقهاء حواضر المغارب والأندلس وبواديها وجبالها... هل أذكر لكم العنعنة؟... حدّثني أبو سعيد القرطبي عن سعد التّلمساني عن أسعد المرّاكشي عن ساعد الصّفاقسي عن سعدون القسنطيني قال : إنّ الأمّة المحمّديّة في المغارب إنّما هي سنّية مالكيّة تكفّر كلّ من اشتغل بالفلسفة وبعلوم الأوائل.

ولذا نحن الأمّة المحمّدية نطالب مولانا
السلطان بحرق كتب الفكر ـ عفوا ـ
الكفر وإقامة الحدّ على المشتغلين بها
من الزّنادقة. انتهى الحديث.

في بيت والي قرطبة تحاك الدّسائس

الطّعام الفاخر تمهيد للسّمّ النّاقع

والي قرطبة : يا شيخي، سبحان الله... هيّا معي، لنغادر هذا المكان حتّى لا ينقلب الموقف إلى المأساة! لا يليق بك أن تخاصم أخي السّلطان أمام النّاس! هدّئ من غضبك...

ابن رشد : لم أغضب! لم أغضب يا رجل! ومن قال لك إنّي غضبت؟

والي قرطبة : أعرف أنّك الهدوء بعينه، والاطمئنان، والسّلامة... هيّا اتبعني! لنبدّل هذه السّاعة الحرجة بساعة أفضل!

ابن رشد : إنّما رميت بحقائق الأمور على وجه أخيك السّلطان حتّى يفهم هذه الدّنيا الّتي تغيّرت وتغيّر معها البشر!

والي قرطبة : أناشدك بالله أن تسير معي إلى بيتي...

ابن رشد : النّاس ملّوا من الحروب، ملّوا من فتن ملوك الطّوائف، ملّوا من المتطرّفين! . . . نصحته لكي يعيش النّاس في سلام في هذه الأندلس الّتي ما زالت تتوجّع من داء التّعصّب، لكي لا يحارب بعضهم بعضا! . . .

والي قرطبة : لكنّ أخي رجل سياسي، بينما أنت رجل تقني! . . .

ابن رشد : أنا رجل تقني؟ تعني ماذا؟ لحّام أصلح قنوات المياه؟ وأركّب خيوط الكهرباء، وأعبّد الطّرقات!؟ هذه جديدة في معجمك السّياسي!

والي قرطبة : منزلتك عزيزة عندي، أنت أستاذي بل أستاذنا جميعا. ونصائحك دائما غالية. لكن من يفهمك؟ . . . لن أنسى مدى الحياة أنّي مدين لك. . . لقد أفهمتني ما لم يفهم النّاس!

ابن رشد : لماذا تقول لي هذا الكلام؟ . . . لا مبرّر له! نتقابل كلّ يوم منذ سنوات، فلا كلفة بيننا

إذن، رغم فارق السّنّ. . . أنت أصغر منّي بثلاثـين سنة، على الأقـلّ، لكن انظر إلـى وجهك في المرايا، وجهك مكمّش كوجـه العجوز. . .

والي قرطبة : أقبل منك كلّ نقد وانتقاد يا شيخي، أو لم تربّنا جميعا؟ ربّيتنا تربية أصيلة عالية. أعتقد أنّي لم أخيب ظنّك. . .

ابن رشد : صحيح، كنت من أنجب طلبتي. . . كنت تعرف دائما من أين تؤكل الكتف! . . . لكن علام تحدّثني عن هذا الماضي، بينما أنت بلغت الأربعين وأمامك الدّنيا؟

والي قرطبة : بالله، هل تذكر يوم جئتك بمقالتي الفلسفيّة في موضوع الإمامة والعقل شرحا لبيت أبي العلاء : لا إمام سوى العقل مشيرا في صبحه والمساء؟ هل تشاطرني هذه الشّرائح المشويّة اللّذيذة؟

ابن رشد : دائما شَرِهًا، أكُـولاً، نَهِمًا، كما عرفتـك، إنّي أقنعُ بكأس من الحليب. . . .

والي قرطبة : سبعة عشر على عشرين! منحتني عددا قياسيا تفوّقت به على جميع طلبتك حتّى حسدني أخي السّلطان. . . جعلتني أتفوّق عليه! . . . ديْنٌ في عنقي!

ابن رشد : جعلتك أنا؟ بل جعلت نفسك! أنـت حـرّ فيما تفعل وتفكّر!

والي قرطبة : وهذه العصيدة؟ كـلّها زبدة وعسل! أعتزم تأليف كـتـاب فـي فـنّ الطّبخ الأنـدلـسـي الباذخ. . .

ابن رشد : هذا أفضل من إدارة شؤون ولاية قرطبة! . . . بعد هذه المفتّحات، تريد أن تقول ماذا؟

والي قرطبة : أفاتحك يا شيخي! بصراحة الصّديق لصديقه أقول : لم يكن من المناسب أن تصرخ في وجه أخي السّلطان!

ابن رشد : غير مناسب؟ كلامي معه غير مناسب؟ وما هو المناسب إذن؟

والي قرطبة : كان موضـوع دفـاعك عن الـنّصارى غـيـر مناسب! في ذلك الوقت. . .

ابن رشد : إذا كان سلوكي غير مناسب، فهل شخصي غير مناسب أيضا بين أشياخ الموحّدين، والوزراء، وقوّاد العسكر، والمضحكين؟

والي قرطبة : يا شيخي لا تغضب!...

ابن رشد : ... وموقعي في هذا العالم غير مناسب؟ وأخوك السّلطان هل هو مناسب؟

والي قرطبة : والله العظيم، أقسم أن تعود إلى مكانك المبجّل! ذق هذه العصيدة، وقل لي ما رأيك؟

ابن رشد : ارفع عنّي هذه العصائد الخامرة يا رجل!

والي قرطبة : بالطّبع، أخي السّلطان غير مناسب، لقد أصبت الحقيقة! لكن ماذا تريده أن يفعل، وهؤلاء المتعصّبون يقتلون ويدمّرون كالحشّاشين، ويتوعّدون النّصارى بحرق كنائسهم، وهو عاجُز عن ردعهم!

ابن رشد : لا تسلك في حديثك الثّرثار هذا المنعطف الأعوج! على كلّ، فإنّ المتطرّف مثل أخيك

الّذي يحارب المذاهب الأربعة لفرض المذهب الظّاهري لا بدّ أن يلقى من هو أكثر تطرّفا منه! والتّسامح هو ترياق التّطرّف!

والي قرطبة : إذن، أين هو من الإمام العاقل العقلي، وكيف يكون؟

ابن رشد : منك أترقّب الجواب بما أنّي رجل تقني كما تقول، تكلّم يا أخي، وأنت تحسب كلماتك معي، بح بما يختلج في صدرك. . .

والي قرطبة : أفاتحك. . . من هو الأنسب : أخي أو أنا على رأس هذه السّلطنة؟

ابن رشد : ماذا أسمع؟ أهكذا تكافئه؟ . .

والي قرطبة : . . . لو تأخذ لي البيعة من الخاصّة؟ . . .

ابن رشد : . . . أعوذ بالله من شرّ ما خلق! لكنّي أنا شرعيّ وموال للحكم الشّرعيّ! أتركك الآن. . .

والي قرطبة : . . . أشتهي أن أكون سلطان المغارب والأندلس. . .

ابن رشد : أهي شهوة؟ عليك بتصنيف كتاب في الطّبخ والحلواء!

والي قرطبة : أنا أمهر منه وأحذق في هتك ستر المتطرّفين. . . .

ابن رشد : عفت هذا الكلام، عفت ملوك الطوائف، عفت الدّسائس والمؤامرات! عفت كلّ من يريد الزّعامة ! عصيدتك هي مرق خنزير!

والي قرطبة : هل ترضى بالظّلم بينما أنا أقدر منه على هزيمة الكلب الرّومي الأذفونش، وعلى قتل جميع وزراء أخي، وقوّاده، ومحو اسمهم ورسمهم في هذه البلاد إلى الأبد!

ابن رشد : أنت يا طبّاخ جهنّم!؟ اتركني أخرج، لا تتعلّق بثيابي!

والي قرطبة : لو تأخذ لي البيعة الخاصّة والبيعة العامّة لسوف أسمّيك في أول ظهير سلطانيّ شريف شيخ الدّولة، في منزلة المهدي بن تومرت!

ابن رشد : لعنة الله عليك!

والي قرطبة : تريد ماذا في الأخير أكثر من كلّ هذه الوعود الصّحيحة؟ أنت الآمر النّاهي، وأنا المنفّذ المخلص الوفيّ المطيع في الدّولة المنتظرة الّتي ستتحلّب أمامها الأفواه! كيف تريدها؟ دولة دينيّة أصوليّة مع شيء من توابل التّسامح والإخاء والمساواة؟ أنا لها! دولة ديمقراطية علمانيّة مع أوقية من الدّين والتّطرّف والتّصلّب؟ أنا لها! دولة دكتاتورية عسكريّة تقتل النّاس في السّجون والمنافي بالفلفل الأحمر؟ أنا لها! دولة العقل الكلّي مع أملاح الأساطير والخرافات؟ فهل تجد أطوع منّي لتنفيذ أوامرك؟ هذه مناسبة ثمينة فريدة لكي تطبخ كلّ ما تحلم به! أفلا تكون أفلاطون النّجاح؟

ابن رشد : أما كفاك ما التهمته؟ أسكرك هذا الطّعام الفاخر حتّى حسبت أنّ الدّنيا في متناول يدك الثّقيلة القاصرة؟ لا تحالف مع الشّرّ!

والي قرطبة : أنا منك. . .

ابن رشد : كلّ انتساب هو عبثيّ محض!

والي قرطبة : وأفكاري هي طبخة من أفكارك. . .

ابن رشد : لكنّها طبخة شائطة!

والي قرطبة : وأنا مطبّق وفيّ لوصفة فلسفتك ولما جاء فيها.

ابن رشد : فلسفتي ليست وصفة للطّبخ! قرأتَها بعين، وببصيرة عمياء!

والي قرطبة : وإذا أنكرتني، فإنّما أنكرت في الحقيقة نفسك، وإذا ما أنكرت نفسك، فلأنّ في فلسفتك شيئا متعفّنا لا يطبخ في هذا الزّمان، ولا يؤكل بعد هذا الزّمان، ولا يهضم حتّى تحت سماوات أخرى!

الباب الثالث

نحو باب الفتوح بقرطبة

الحمار الأوّل : لا شعير ولا فول ولا حمص به نمتّع أشداقنا. هم أكلوا إلى حدّ التّخمة ونحن نمضغ الحسك والشّوك إلى حدّ الجوع... لنسرع.

الحمار الثّاني : هذا العجوز الهالك، مصارينه تقرقر والعياذ بالله! يتمايل كالبرميل على ظهري... نحن على بعد ستة أميال من قرطبة، وهو ما انفكّ يتجشّأ، يضرط، يتقيّأ، يكحّ، يعطس، يبصق، ولا غالب إلاّ الله!

الحمار الثّالث : أحمد ربّك! تقول ماذا لو كنت تحمل مثلي هذا الشّاب الأرعن؟ لفزت بالضّرب المبرح على ضلوعك!

الحمار الثّاني : ... لرميت به على الأرض، لرفسته بحوافري وبرأسي، لأطبقت أنيابي القاطعة على ساقه لعضّه عضّة السّبع الوحش! لكن لا غالب إلاّ الله!

الحمار الرّابع : حدّثني والدي رحمه الله قال : سمعت أبي يقول : قرأت على جدّي في كتاب أنساب الحمير : خلق الله الإنسان جحودا وحقودا كنودا ومستبدّاً ظلوما لدودا، وجرثومة التّسلّط والقهر كامنة في طينته بما هو إنسان!... ولا غالب إلاّ الله!

الحمار الأوّل : أنا أفتح لك الطّريق، وهذا القنديل الملعون يعمي بصري فأتعثّر بين أحجار الصّوّان، وأنتم تشكون؟ من أيّ شيء؟. . . كُتِبَ القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جرّ الذّيول!

الحمار الثّاني : في إمكانك أن تخاطبنا بصيغة الجمع لا بصيغة المفرد، فتقول مثلا : أفتح لكم الطريق. هكذا يقال في البلاد العاربة والمعرّبة والمستعربة، ولا غالب إلاّ الله!

الحمار الأوّل : أولا تتحمّل ياسيبويه على ظهرك حمارا؟ وأنت الآخر؟ وأنت ماذا تفعل؟ أفلا تحمل حمارا؟ لكن حماري أبشع! وأفظع! وأشنع! أحمل له زنبيلا من الكتب والأوراق إلاّ أنّ

دماغه أفرغ من فؤاد أمّ موسى. وكلّما سئل عن مسألة، أخرج ورقة وقال : سمعت عن سعيد عن ساعد عن متساعد عن عن عن... لو يأخذه النّعاس، لسوف آكل حشيش لحيته إلى آخر شعرة! أشهد أنّه حمار معنعن جاهل!

الحمار الثّاني : أريد أن أنهق الآن نهيقا منكرا لأزلزل عليه الدّنيا والآخرة!

الحمار الرّابع : يكفي!... اصبر حتّى نوصل هذه النّجاسة البشريّة الرّديئة بسلام إلى أهلها بقرطبة...

الحمار الثّاني : بسلام؟ لكنّنا في حرب! منذ أن خرجنا من مراكش الحمراء ونحن نسمع قرع الطّبول...

الحمار الأوّل : السّلام؟ وهل ثمّة سلام وأمان مع هؤلاء الحمير الذّين يجوبون جميع الآفاق والطّرقات من الجنوب إلى الشّمال؟! الّذين يطاردون قاضي القضاة...

الحمار الرّابع : ومن هو هذا قاضي القضاة؟

الحمار الأوّل : وماذا يهمّك منه؟ قاضي قضاة قرطبة طبعا، المشكوك في أمره. . . أليس هو في حالة فرار؟ كأنّك لا تعلم أنّنا نتتّبعه أينما حلّ وأينما رحل. فلم ننفق كلّ هذا الشّقاء إذن؟ هل سجّلت يا سعيد الخير عدد الأميال الّتي قطعناها من مرّاكش الحمراء إلى هذا المكان الخالي؟

الحمار الثّاني : ولم أسجّل؟ أولا تعلم أنّ الحكومة لا تعطي منحة التّنقّل والسّفر إلاّ لبني آدم؟! ذلك هو الميز العنصريّ بعينه! أين هي حقوق الحيوان إذن في مجتمعنا المتطوّر!

الحمار الثّالث : أنا حسبتها : من مرّاكش الحمراء إلى مكناسة الزّيتون أميال التّعب والنّصب. . .

الحمار الأوّل : من مولاي إدريس إلى فاس إلى تازة إلى وجدة. . . أنا الضّائع بين آفاق المغرب. . .

الحمار الثّاني : بل على العكس من مولاي إدريس إلى رباط الفتح إلى القنيطرة حيث التحقنا بعساكر

السّلطان، أليس كذلك؟ إلى الخميسات
حيث شاهدنا الاحتفالات ومسرحيات كليلة
ودمنة، إلى القصر الكبير ثمّ قصدنا طنجة،
إلى تطوان وطن البَسْطِيلَة، إلى الحُسَيْمة،
إلى سِبتَة، هناك لمحنا بغل ابن رشد قاضي
القضاة. كلّها أميال الجهد والجدّ والكدّ
والشّدّ والأمر العردّ! . . . وكأنّ ابن رشد قد
فرّ من قبضة السّلطان!

الحمار الرّابع : أعلمك إن كنت لا تعلم بأنّ صناعتهم وضع
الحديث وتدليسه، وبأنّهم لا يصنعون شعرا
ولا سجعا ولا نثرا حتّى أنّهم لا يركبون
الرّجز حمار الشّعراء!

الحمار الثّالث : ومن سبتة ركبنا البحر إلى الجزيرة الخضراء
بوّابة الأندلس، فكاد المركب يغرق بنا لولا
ألطاف الله، بسبب هذه النّجاسة البشريّة الّتي
صبرنا على تحمّلها! سوف أقيّد كلّ ذلك
في ذاكرتي. . .

الحمار الأوّل : انظروا إلى هـذا النّـور الّذي بدأ يـغـمـر الأفق. . .

الحمار الثّالث: لقد أخذهم النّعاس. . .

الحمار الثّاني : من يفتح لنا هذا الصّباح باب الفتوح؟

الحمار الرّابع : عن مسعد عن سعيد عن ساعد عن متساعد عن عن عن عن. . . هيها! هيها! هـيـهـا! هيها!

قرب باب الفتوح بقرطبة
في مقرّ وزارة السّلطان

الوزير ابن عطيّة : . . . هذه التّقارير لا قيمة لها، أمزّقها! . . . فارغة لا شيء فيها : لا تهمة، لا شبهة، حتّى أدنى شكّ. . .

شيخ الرّواة : لم نعثر له على أيّ شيء! للأسف الشّديد. . .

الوزير ابن عطيّة : . . . أنتم مغفّلون! لا يوجد شيء في هذه التّقارير يشير إلى جيرانه. . . أنا أعلّمكم مهنتكم؟

شيخ الرّواة : سألنا عنه أربعين جارا من جيرانه. . . الجميع يقولون، كأنّهم متّفقون على احترامه ومحبّته، هو المبادر دائما بالتّحيّة والسّلام الصّباح والمساء، وبالزّيارة والتّهاني في الأعياد والمواسم والأفراح، وبالمؤانسة والمواساة في المصائب والمآتم. . .

الوزير ابن عطيّة : . . . والمرضى الّذين يعالجهم في مارستان قرطبة؟ لا تقل لي إنّ جميع مرضاه يحبّونه أيضا!

شيخ الرّواة : استنطقناهم واحدا وحدا. لا أحد منهم اشتكى منه أو تذمّر مجرّد التّذمّر والإنتقاد. . .

الوزير ابن عطيّة : عجيب. . .

شيخ الرّواة : الأعجب من ذلك أنّه يعالجهم لوجه الله تعالى، بالمجّان، فلم يبتز أموالهم كزميله الطّبيب الشّهير ابن زُهْر. . . ثمّ يعطيهم الدّواء بالمجّان، وبالمجّان أيضا يطعمهم مدّة مرضهم، ويكسو فقيرهم، ويمنح أراملهم وأيتامهم حلواء عيد الفطر، وكبش عيد الإضحى، والأقلام والكتب حين يعودون الى الكُتّاب! وزيادة على ذلك، يشغّل العاطل منهم. . .

الوزير ابن عطيّة : يكفي! جعلته مؤسّسة خيريّة!؟ لأنّك لم تشكّ في مصدر هذه الأموال الّتي وزّعها بسخاء على فقراء قرطبة والأندلس. . .

شيخ الرّواة : بل بالعكس يا سيّدي! لنا وثائق وحجج! لقد قصدنا البنك الأندلسي وعرفنا كيف نطّلع على حسابه الجاري هناك. وصوّرنا نسخة كاملة شاملة. . . له مرتّب شهري ومنح عديدة من مولانا السّلطان. . .

الوزير ابن عطيّة : كم مبلغ مرتّبه؟ ضخم؟ كبير؟ مرتّبه أعلى من مرتّبي؟ أنا أخدم هذه الدّولة متفانيا، وهو يهاجمها، ذلك الجحود الكنود، ويخرّبها! هذه الدّنيا غير منصفة يا حبيبي! من يعمل بإخلاص لا يلقى دائما جزاء عمله، أمّا من يخون، ويخدع، فإليه تسند الجوائز والأموال والمنح! وأنا لي ديون كثيرة قد أثقلت كاهلي! كم؟ تكلّم يا بليد!

شيخ الرّواة : أعلى من مرتّبك، للأسف الشّديد! لكنّه يعطي نسبة سبعين بالمائة من مرتّبه إلى المارستان، ويكتفي بالثّلاثين الباقية للإنفاق على شؤون أهله وبيته وكتبه! . . . يعيش عيش الكفاف!

الوزير ابن عطيّة : ولِمَ لا تقل إنّه ملاك من ملائكة السّماء؟ أعرف أنّك ثقيل الفهم جامد الحسّ! والرّشوة؟ ألم تفكّر في الرّشوة؟

شيخ الرّواة : سيّدي لا تغضب! فلقد قصدنا دار القضاء بقرطبة، وكدنا نسكن مجلسها حتّى ضجر منّا ومن وجوهنا الحجّاب! لم نسمع شكوى! الكلّ يقبل أحكامه ويذعن حتّى القتلة وقطّاع الطّريق! لا يحابي الأغنياء ولا يظلم الفقراء! لا يجامل!

الوزير ابن عطيّة : أو تمدحه أمامي؟ وتصرّفه في أموال الدّولة؟

شيخ الرّواة : واضح. . .

الوزير ابن عطيّة : اسكت! لنخترع له فضيحة اختـلاس أموال الدّولة، النّاس يتعشّقون مثل هذه الفضائح، يتلذّذون! ويقولون : دولتنا عادلة!

شيخ الرّواة : لكن من يصدّقنا؟

الوزير ابن عطيّة : أأنت معي أم ضدّي؟

شيخ الرّواة : كيف أكون ضـدّك وقد سرقت دفـاتـر المحاسبات من خزائن دار الـقـضـاء، واطّلعت علـى كـلّ كبيرة وصغـيـرة؟ فلباسه رثّ قديم. . .

الوزير ابن عطيّة : تلك تعمية. . . وتمويه!

شيخ الرّواة : ومركبه بغل عجوز مثله!

الوزير ابن عطيّة : صحيح له بغل عجوز مثله! عجوز!!! حتّى سقطت أنيابه! لكن لا بدّ أنّه يتسلّل آخر اللّيل إلى الخمّارات وبنات اللّيل، لا سيّما أنّه لم يعرف رضاعة ولا طفولة ولم يعش لذّة الشّباب ولا متعة الكهولة!

عجوز! ولدتـه أمّه عجوزا! ولا يمكن لي أن أتصـوّره إلاّ عجوزا! عجوز في مثل سـنّه العالية لا بـدّ أنّه يشتهي بنتـا طريّة! . . .

شيخ الرّواة : اسمعني لحظة يا سـيّدي! لقد استرقنا النّظر إليه من خلال شبّاك غرفته طوال ثلاثين ليلة دون انقطاع، فرأيناه يقـول باسم الله ثمّ يشرع في الكتابة، ويكتب ويكتب حتّى الهزيع الأخير من اللّيل، وإذا ما عطش فـإنّه يشرب الحليـب لا غير! حـتّى مللنا من الكتابة والـكـتـب والحليب! وعند أذان الصّبح . . .

الوزير ابن عطيّة :وقد قرأتم ما يكتب. . .

شيخ الرّواة : يكتب الفلسفة طبعا لا رسائل العشـق والغرام! وهو يراجع دائما كتابا كبـيـرا عـلـيـه اسـم غـريـب أظـنّ رسـطـا أو رسطاليس أو أرسطو على الأصحّ. فقلنا لا بدّ من معرفة هذا الشّيخ، وافترضنـا

أنّه لا يكون إلاّ مستعربا كافرا. فطرنـا نبحث عنه في سـوق الـكـتـب، وفـي الكنائس، وأديرة الرّهبان، فقيل لنا إنّه رحل منذ زمان هو ورفيقه عَفْرَطون إلى بلاد الإفرنج. لم تضحك يا سيّدي؟

الوزير ابن عطيّة : لأنّ الشّيخ أرسطو قد توفّي منذ أكثر من عشرة قرون يا درويش! صارت عظامه غبارا!

شيخ الرّواة : إذن هذا ابن رشد هو وارث الـكـافـر ووارث كتبه؟ على كـلّ قرأناها، لكـن لم نفهم منها شيئا!

الوزير ابن عطيّة : الحمد لله على نعمة الجهل!

شيخ الرّواة : إذن، هو ينقل الكفر عن هـذا الـشّيخ الكافر، ويروّجه إذا كان وارثه!

الوزير ابن عطيّة : هذه هي الفضيحة! هذه هي الفضيحـة الّتي تنطلي على النّاس! روّج في الأحياء الشّعبيّة ومساجدها حديثا من صناعتك

واتقـانـك يـكـفّر ابن رشـد وجـمـيـع الفلاسفة!

شيخ الرّواة : أضع لك مائة حديث ولن يقف أعلـم العلماء على أيّ خلل فيها!

الوزير ابن عطيّة :لكن، كـلّ هذا لا يشرح لـي الـدّوافع الحقيقيّة الّتي تدفعه إلى الزّهد في الدّنيا وإلى كتابة الفلسفة وإلى تـولّي منصب القضاء ومباشرة الطبّ والتّأليف في الفقه والكلام والفلك والسّياسة!؟ لا يشرح كلّ هذا الحماس! هل لوجه الله تعالى؟! محال! محال!

شيخ الرّواة : وجائزتي إذا ما صنعت لك مائة حديث صحيح؟

الوزير ابن عطيّة : جائزتك على الله، وعـلـى الإسـلام، وعلى الـسّلطـان! . . اذهـب الآن. . . وكمال ابن رشد خطر علينا وعـار فـي وجه البشريّة قاطبة!

في بيت ابن رشد بقرطبة

غرفة ذات قبو. آمنة ابنته تنسج

ابن رشد : إلام ترفضين؟ يا بنيّتي، استمعي إلى نصيحة أبيك. استمعي إليّ جيّدا. لقد تقدّمت بي السنّ وإنّي لأحبّ أن أفرح بك...

آمنة : فرحتي أن تخرج سالما من بين أيديهم... من بين مخالبهم وأنيابهم المتعطّشة إلى سفك الدّماء... نسجت لك هذه القطعة من الحرير والكتّان حتّى تنزع ذلك الشّيء الرّثّ من على ظهرك...

ابن رشد : ماذا سيصنعون بعجوز مثلي؟ أن يعزلوني من وظيفتي قاضي القضاة؟ أن يمنعوا طلبتي وأحبابي من زيارتي؟ أن يجوّعوني؟ أن يلقوا بي في الحبس؟ أن يحرقوا كتبي في بطحاء باب الفتوح؟... أريد أن أراك عروسا في بيتك قبل أن تنام عيني! وعلام كلّ هذا النّسيج؟ تعرفين أني لا أحبّ الثّياب

الجديدة . . . جسمي ينكرها!

آمنة : لا أريد الزّواج بذلك الشّاب التّافه. إنّه جاهل! يحمل شهادة كلّية التّجارة! . . . وماذا يهمّني؟ آلاف البشر يستطيعون الحصول على مثل هذه الشّهادة الحقيرة ليديروا دنيا أسعار البضائع والأسواق!

ابن رشد : إنّه يحبّك يا بنيّتي! يحبّك . . . هل تبقين في هذه الغرفة وأنت تنسجين الشّيب؟ . . .

آمنة : لا تحدثّني عن الحبّ، يا أبتي، المستكلب المسعور المغلوم! أمثاله متى يرون أنثى يريدون القفز عليها! . . .

ابن رشد : رأيت الحبّ في خوص عينيه، في صمته المتردّد، في ظرافته المفرطة، في حيائه . . . يوم جاء مع أبيه لخطبتك! . . . ثمّ هو سليل إحدى البيوتات القرطبيّة العريقة. ولئن كان جاهلا اليوم، فلسوف يتعلّم غدا على محكّ الحياة . . .

آمنة : لم يدرس شيئا نافعا ولا ضاراً. لم يتنوّر. أبوه القاضي ابن حَمْدين الّذي تقول الشّائعات إنّه سيعوّضك في وظيفك هو أيضا جاهل الجهّال، ومتعلّق بأذيال السّلطان علّه ينال منه بعض السّلطة! رجل عجوز يابس ناشف كبقيّة كسرة خبز يابس ناشف! ألبس هذا، ما أجمله على جسمك، حتّى إذا ما جاءت الشّرطة لاعتقالك وجدوك في هيئة سلطان لا شحّاذ!

ابن رشد : إذن تحبّين رجلا آخر؟... ألم يعد أحدنا الآخر بأن يقول له كلّ شيء؟

آمنة : لا أحبّ آخر! افهمني يا أبي. ذاك الشّاب الشّارف من آل حَمْدين هو مجرّد آلة جميلة فقط... فهذه الكلّيات والجامعات المنتشرة في قرطبة وغرناطة واشبيليّة إنّما هي مصانع لتخريج الآلات البشريّة التّقنيّة، لكنّها بدون دماغ ولا خيال ولا فكر!

ابن رشد : آه لو كانت أمّك حيّة! . . . لكن رحمها الله، فلا تقنع النّساء إلاّ النّساء.

آمنة : هي تزوّجت رجلا عارفا عالما متنوّرا هو أنت! فكيف تفرض عليّ إذن أن أتزوّج رجلا ملطّخا بقذارة الجهل والأمّيّة. وتقول لي إنّه سيتعلّم! أعرف أن بعض الجهّال سرعان ما يتشعبطون في سلّم السّلطة!

ابن رشد : لم أفرض عليك يا بنيّتي شيئا. . . وما فرضت! بل أنت سيّدة ووليّة أمرك!

آمنة : ألم تقل أنت في كتاب جوامع سياسة أفلاطون : إنّ المرأة مثل الرجّل، ولا يختلف أحدهما عن الآخر إلاّ في الجنس لا في الطّبيعة؟ ألم تقل : لو تهيّأت ظروف المجتمع لصارت المرأة في إمامة الجوامع، في قيادة الجيوش، في رئاسة الدّول؟ أليس كذلك؟ لم ترضى إذن أن أقضي حياتي شقيّة في الولادة والرّضاعة، في الطّبخ والخياطة؟

ابن رشد : لو كان هذا الثّوب أبيض اللّون، إنّي أحبّ البياض. . .

آمنة : لا أحبّ لون أكفان الموتى! أنا يا أبي أحبّ اللّون الأحمر، لون السّلاطين، وأنت سلطان!

ابن رشد : ذاكرتي ما زالت قويّة كما لو كنت في عنفوان الشّباب، والحمد لله! لم أتذكّر يا آمنة أنّي أعطيتك كتابا من كتبي. . . ماذا فعلت وراء ظهري؟

آمنة : لم أقترف أيّ ذنب! إنّما حين تلجأ إلى فراشك في الهزيع الأخير من اللّيل، وأنت متعب مكدود من شدّة السّهر والكتابة والمراجعة، أتسلّل إلى المكتبة، فأشعل السّراج، وقد بدأت تباشير الفجر تلوح في الآفاق البعيدة، فأقرأ آخر ما كتبت عن أفلاطون والسّياسة المدنيّة. . . فأتحمّس لأفكارك الجميلة وأقول لا بدّ، والله لا بدّ أن تتحقّق هنا في قرطبة، وهناك في مراكش

وفي تونس وفي القاهرة وفي دمشق. . . لا بدّ! رغم تفاهة آل حَمْدين!

ابن رشد : وتفهمين يا آمنة فلسفة أفلاطون بينما لَم أحدثك عن الفلسفة طوال حياتي؟ . .

آمنة : . . . إنّما رضعت الفلسفة مع حليبَ أمّي. . . ألم تحدثّها عن سقراط وكأنّه جارنا، وعن أرسطو وكأنّه معلّمك وصاحبك، وأفلاطون وكأنّه زميلك؟ . . .

ابن رشد : . . . بينما تتظاهرين بتدبير شؤون البيت من طبخ وخياطة ونسيج؟! أقرأت كتبي منذ سنوات؟

آمنة : قرأتها جميعا، وحفظت فقرات منها، وأكاد أدرّسها لتلاميذك. . .

ابن رشد : لا حول ولا قوّة إلاّ بالله! مصيبتي أعظم ممّا كنت أتصوّر!

آمنة : تتراجع؟ تندم؟ أولا تفتخر بي؟

ابن رشد : بل أمنعك من الدّخول إلى المكتبة، أمنعك منعا باتا لا رجوع فيه. النّاس لا يحبّون

الفلسفة في هذه البلاد، لا يريدون من يفتح أفكارهم، يستهينون به، يحقدون عليه. لا أريد أن تكوني ضحيّة مثلي، أن تكون الفلسفة في دار الإسلام نحسا ولعنة على من يشتغل بها!

في أحد الشوارع شبه المظلمة بقرطبة

ابن رشد وابنه محمّد وأشباح سوداء مخيفة ومصلّون

محمّد بن رشد : لله، لله، لله...

ابن رشد : لا زال سعدك جديدْ

دائم وسعيك حميدْ

محمّد بن رشد : في الدّهر أنت فريدْ

وفي صفاتك وحيدْ

معا : وأنت بيت القصيد

محمّد بن رشد : يا ناس متاع الله... لله، لله، لله...

ابن رشد : شحّاذين، صرنا شحّاذين! اخطف النّظر إليهم ولا تعرهم أيّ اهتمام...

محمّد بن رشد : ... لم يغادروا المكان، صاروا لاصقين بنا مثل ظلّنا... يتجسّسون علينا. هذه المدينة حصار ومحتشد!

شبح أوّل : هذان الشّخصان شحّاذان محترفان، لكن، عندي ضدّهما شبهة!...

شبح ثان : هذان الشّخصان ممثّلان جوّالان من فرقة أولاد أوموسى المشعوذين. لكن، لديّ شكّ فيهما...

شبح ثالث : هل نقبض عليهما أم لا؟ ما هي الفتوى الفقهيّة الّتي نحتال بها للقبض والإعتقال والسّجن؟

الشّبح الأوّل : حدّثنا القاضي أبو سعيد بن حَمْدين قال حدّثنا ابن بشكوال عن سعدون عن سعد عن أسعد عن مسعود أنّه قال : متى شككتم أدنى شكّ في واحد من عباد الله فاقبضوا عليه والقوا به في السّجن مدّة من الزّمن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. هذا حديث صحيح قرأته في سجلاّت ديوان الأمن.

الشّبح الثّاني : سواء كانا شحّاذَيْن أو ممثّلَيْن، فما الفرق؟ فنلق عليهما القبض فورا... هيّا لكن أين هما؟

(أذان صلاة العشاء)

ابن رشد : يا ولدي، لندخل إلى المسجد ولنصلّ صلاة العشاء... لو أحاول إقناع المصلّين؟ إنّي أتوسّم فيهم الفهم والاقتناع والخير!

محمّد بن رشد : سينكشف أمرنا رغم هذا الزّيّ القذر...

ابن رشد : ماذا نفعل إذن؟ إلى أين نذهب، إلى أين لقضاء هذه اللّيلة المشؤومة؟ إلى تحت قنطرة الوادي الكبير مثل أسقاط النّاس، وقطّاع الطّريق، والسكارى؟ لا بدّ من مخرج...

فقيه : أو تدخل أم لا تدخل؟ تنّح عن باب المسجد... خشبه من السّاج العزيز وحلقته من الفضّة! وأنت واقف أمامي كالسّارية! إنّك لطّخت الباب بوسخ لباسك المرقّع القذر! رائحتك، والعياذ

بالله، كأنّها رائحة السّردينة القديمة العفنة. . .

ابن رشد : ألعن الشّيطان الرّجيم يا إمام المسجد، ودع النّاس وشأنهم. . .

الفقيه : وماذا تفعل بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر؟! وقبل كلّ شيء، لماذا لا تغتسل؟

محمّد بن رشد : اتركنا يا رجل! واهتمّ بشؤونك، وأرحنا من وجهك.

الفقيه : هل أنت على طهارة حتّى تدخل إلى المسجد؟ هل توضّأت أم تيمّمت؟ أريد أن أعرف حتّى أرخّص لك ولصاحبك المشاكس في الدّخول إلى المسجد لتصلّي أنت وصاحبك صلاة العشاء معنا؟ . . .

ابن رشد : نعم توضّأنا! نعم ثمّ نعم!

الفقيه : على السّنة المحمّديّة الشّريفة الطّاهرة؟

ابن رشد : طبعا، على السّنة الشّريفة وعلى مالك بن أنس. . .

الفقيه : بحذافيرها؟ وبكمالها وتمامها؟ واعتمادا على جميع الأحاديث النّبويّة الشّريفة الّتي جاءت في باب الطّهارة والوضوء؟ واستنادا إلى جميع أقاويل الفقهاء العظام؟

محمّد بن رشد : يا هذا نحن نحفظ السّنّة بأكملها، ونحفظ جميع أقاويل الفقهاء في الأصول، نحن. . .

الفقيه : نحن نكتفي بفقه الفروع فقط لا غير! فإذا كنت تجهل الوضوء، فاستشرني يرحمك الله!

مؤذّن المسجد : هل أعيد الأذان يا سيّدي الإمام؟

الفقيه : وكلّ استشارة تساوي خمسة دنانير، وهو مبلغ حقير بالنّسبة إلى حفظ دينك ودنياك! هذه بطاقتي عليها عنوان حانوتي

إلى جانب سوق الحمير قبل الوصـول
إلى باب الفتوح. أمّا إذا أردت استشارة
خاصّة أو ربّما حيلة فقهيّة في أيّة مسألة
من مسـائل الدّين والدّنيا فأنا صاحبك!
وأجري لا يتجاوز العشرة دنانير فقط!

ابن رشد : لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العظيم. ويل
للإسلام من الفقهاء....

مؤذّن المسجد : يا سيّدي الإمام، المصلّون يترقّبونك
منذ نصف ساعة... لقد فـات وقـت
الصّلاة، هل أعيد الأذان؟

الفقيه : أعده بما أنّي أنا إمام الجامع! ومن لم
يصل ورائي فـصـلاتـه بـاطـلـة! هـيّـا
لندخل...

(تحت أضواء بيت الصّلاة)

مصل أوّل : شغلك عن وظـيـفـك هـذا الـعـجـوز
وصاحبه؟

ابن رشد : أيها النّاس، أريـد أن أقول لكم كلمـة
تنير لكم السّبيل...

مصل ثان : وماذا عساك تقول؟

محمّد بن رشد : هؤلاء أشرس من إمامهم. . . هؤلاء أغنام لا فائدة في مخاطبتهم. . .

مصل ثالث : كأنّي أعرفه، كأنّي رأيته من قبل! لكن أين؟

الفقيه : الله أكبر. . . باسم الله. . . ما هذا الضّجيج؟

المصلّي الثّالث : أنا أعرفك حقّ المعرفة يا ابن بني آدم! وتصلّي معنا؟ وتندسّ بين صفوفنا؟ أنت أبو الوليد بن رشد القاضي المعزول الهارب من حكم مولانا السّلطان. . . أنت بعينك! أنت ابن رشد!

المصلّي الأوّل : الفيلسوف؟ لعنة الله عليك! كيف دخلت إلى حرمنا؟

الفقيه : الزّنديق؟ الكافر؟ الملحد؟ أغويتني يا شيطان! يا غدّار، يا غشّاش! ألم تناقشني في الطّهارة والوضوء؟ يا منافق!

المصلي الثّاني : أين هي درّة إمام الجامع حتّى أكسّر له رأسه وضلوعه!... الفلقة! الفلقة!

الفقيه : ألم تطلب منّي إستشارة فقهية؟ كانت مكيدة لتتسلّل إلى بيت الله! اخرجوه، أقصوه، اطردوه...

المصلي الثّالث : اخرج من المسجد، وإلاّ استنجدنا بالشّرطة!

الفقيه : اخرجوا هذه النّجاسة من بيت الصّلاة!...

ابن رشد : يا مسلمين، استمعوا إليّ...

الفقيه : لن يستمع إليك منهم أحد... سدّوا آذانكم! نقصيكَ...!

ابن رشد : لقد علّمتكم يوم كنتم طلبة العلم في مرّاكش زمن الخليفة عبد المؤمن، ودرّستكم أصناف المعرفة، وفتّحت أفكاركم وصدوركم على التّأمّل فيما خلقه الله...

الفقيه : يا معلّم الشرّ، نحن نقصيك!

ابن رشد : المعرفة حريّة يا مسلمين. . . لقد شفيتكم من الجهل كما شفيت أبدانكم من الأمراض بأدويتي ومعالجاتي في مارستانات قرطبة. . .

المصلّي الأوّل : أنت الطّاعون الأسود الجارف الّذي لا يبقي ولا يذر! . . . ما هي صناعتك؟ الشّكّ؟ نحن لا نشكّ في ديننا، نحن نؤمن بالإسلام إيمان العجائز! أو تعرف ما هو حكم مروّج الكفر والهلاك والموت؟ الخازوق! نقصيك!

ابن رشد : إنّي مؤمن، مسلم، سنّي، مالكي، مثلكم! وأشهد أن لا إلاه إلاّ الله وأنّ محمّدا رسول الله! لقد ربّيتكم على الأخلاق الفاضلة الحميدة. . . وكتبي شاهدة!

المصلّي الثّاني : أنت لا أخلاق لك ولا مروءة! فمن يعوّض الدّين بالفلسفة فكأنّما يبيع آخرته

بدنياه! يا جامع الكبائر والرّذائل!
نقصيك!

ابن رشد : ديننا واحد وهو الإسلام، إنّ الدّين عند الله الإسلام! . . .

المصلّي الثّالث : أنت تؤمن بآلهة الرّوم والفرس والهند، يا جاهلي! نقصيك!

ابن رشد : كيف لي أن أقنعكم يا قرطبييّن؟ لقد أفحمتموني بسدّ آذانكم عن كلامي، وبجهلكم، وبمكابرتكم! كيف؟

الفقيه : متى كنت قرطبيا؟ متى؟ نقصيك عن وطننا قرطبة إلى أحوازها وأطرافها الهالكة! نقصيك!

ابن رشد : كيف أعبّر لكم بلسان عربيّ فصيح لفتح عيونكم وأفكاركم وصدوركم؟

المصلّي الأوّل : أنت لست بعربي، أنت يهودي مندسّ بين صفوفنا! نقصيك إلى بني اسرائيل!

الفقيه : أنت عبث الدّين والدّنيا، نقصيك!
اخـرجوه هو وصاحبه والقوا بهما على
قارعة الطّريق!

مؤذّن المسجد : هل أعيد الأذان للمرّة الثّالثة؟

الفقيه : اسكت أنت، لعنة الله عليك!

يلقون بهما على قارعة الطريق

الباب الرابع

أصداء أسواق قرطبة



بطحاء باب الفتوح بقرطبة

الإستعدادات حثيثة لتهيئة الإستعراض العسكري الموحّدي قبل الإنصراف إلى ميدان الحرب لمقاتلة ملوك قشتالة وليون وأراغون. لكنّ الأسواق أغلبها مغلقة وأبوابها تئنّ وتتوجّع.

الباب الأوّل : كساد، وفساد، وعناد...

الباب الثّاني : الضّرائب جائرة، والتّجارة خاسرة، والنّفوس منقبضة، والقلوب فارغة!

الباب الثّالث : ويل من الجوع، ويل من غضب الجموع...

الباب الرّابع : السّلطان لا يعنيه شيء : يبني الخِيرَالْدَا في إشبيليّة أعلى من برج بابل جدّاً جدّاً!

الباب الخامس : قمح البلاد مفقود، والسّمسار المحتكر المضارب موجود، والمشتري مقهور مكدود...

الباب السّادس : السّلطان لا يعنيه شيء : يسلّح الجيوش بقوّات كالعهن المنفوش. دولة السّلطان

مفلسة، وعملـة السّلطان مـزيّفة، وقوات
النّصارى مستكلبة!

الباب السّابع : ممّا يزّهدني في أرض أندلس، أسماء معتمد
بالله ومعتضد. ألقاب سلطنة في غير مملكة،
كالهرّ يحكي انتفاخا صولة الأسد!

الباب الأوّل : عناد، وفساد، وكساد. . .

جماعة من التّجّار : السّبب في كلّ هذا البلاء، هو ابن رشد!
ابن رشد هو السّبب وهو المتسبّب!

راهب : من يـدلّني على بيت ابن رشد؟ مـنـذ
ثلاثة أيّام وأنا أبحث عنه. . .

شخص : اختفى أصدقاؤه وتلاميـذه ثـمّ قبضـوا
عليهم الواحد بعد الآخر. . . لا نعرفه
أيها الرّاهب، وما عرفناه، ولا نحبّ أن
نعرفه! . .

كتبي : دع الرّاهب يمرّ. . قل لي أين هو الآن؟

الشّخص : الشّائعات تـقـول إنّه رحل إلـى مصـر
ليكون في حماية صلاح الدّين الأيّوبي.

العلم عند الله! هذه كتبه أخفيها عندك،
هي مكتوبة بالحرف العبراني والحرف
اللاّتيني.

الكتبي : لا تخف، هي أمانة في عنقي إلى أن
تسترجعها متى أحببت. اطمئن، لا
يعرف أحد من زبائني الحرف العبراني
ولا حتّى الحبشي! يا هذا! قل لي أنت
راجع إلى بلاد النّصارى؟ متى تعود؟
رافق ك الرّاهب، لعلّه يساعدك...

الشّخص : دائما مسافر! من غبن الدّنيا أن أعيش
في ظلّ الصّلبان! بما أنّ هذا السّلطان
يتواطأ معهم...

عريف الميليشيا : من أدراك أنّ السّلطان يتواطأ مع أعدائنا؟
من قالوا لك هذه الأكاذيب المغرضة؟
الحرب ثمّ الحرب على الفلاسفة وعلى
النّصارى! فهم متحالفون معهم، بل هم
أشدّ فتكا منهم لأنّ الفلاسفة أعداؤنا
في الدّاخل.

الشّخص : هذا ما يقوله النّاس. . . أمّا الحقيقة. . .

العريف : تشكّك النّاس في مولانا السّلطان؟ وتعقد الإجتماعات اللّيليّة في هذا المحلّ القذر بالمحابر والأوراق والأقلام؟ من يقول لك تلك الأكاذيب السّياسية المفلّقة؟ من؟

الرّاهب : هل صدر كتاب فصل المقال لابن رشد؟ إنّي أترقّب. . .

الكتبي : سيدي العريف المحترم، والله هذا الزّبون الوفّي قد طلب منّي نسخة من كتاب الرّوض العاطر الّذي سيكتبه مؤلف تونسي بعد قرون. . . يا راهب إنّي لا أبيع الكتب! أبيع ماعون الأكل والشّرب!

العريف : يا بلديّة! أين البلديّة؟ سأغلق محلّك يا عجوز، لأنّه مناف لقواعد الصّحّة. فمحلّك كلّه أوساخ ومحابر وسوس وفئران وجرابيع وعنكبوت. . .

الشّخص : أنا أقول لك من قال لي! . . . صديقي
الحلاّق اسمه سِيدِي تاتا سمع كلّ شيء
من جاره السّاكن في درب ابن زيدون.
وجاره هذا قد سمع من جيرانه
الأربعين، كما أوصى النّبيّ بهم خيرا،
لكن إذا ضربت أربعين في أربعين في
أربعين في أربعين إلى منتهى بلديّة
قرطبة، فماذا نجد؟ نجد بلاد الأندلس
بأسرها معنعنة من أولّها إلى آخرها!
وهي تقول حدّثنا الشّيخ جحا عن الشّيخ
جحجوح عن الشّيخ. . .

العريف : أو تتفلسف عليّ يا ويش الأوباش؟
أنت ولا شكّ تقرأ كتب الفلسفة! هيّا،
تقدّم أمامي!

الشّخص : بل أروي الحديث. . . حدّثنا سِيَدي
تاتا عن موسى الفَرَانْقي عن كَوَّال
سبَاطَه. . .

العريف : كتب الفلسفة محرّمة في الأندلس وفي جميع بلدان الدّنيا. يا غريب، نحن هنا في حاجة أكيدة إلى السّواعد المفتولة والأيدي الخشنة والأرجل والأقدام القويّة لا إلى الأدمغة! وهل يوجد دماغ أكبر وأعظم وأضخم مثل قبّة الحمّام من دماغ مولانا السّلطان؟ يا أعوان البلدية، أغلقوا هذا المحلّ القذر المليء بالبقّ والبرغوث! وأنتم يا ميليشيا استضيفوه في الحبس التّحفّظي على حسابه، وأعطوه كتاب فلسفة حقوق الإنسان حتّى يطالعه بأناة وتعمّق... لعلّه يكشف لنا عمّا قريب مخبأ ابن رشد!!!

شاهبندر التّجّار : لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العظيم! أقدّم لك شخصي: شاهبندر تجّار قرطبة! كيف يعقل أن تحكم بغلق محلّ هذا التّاجر الأمين؟ إنّه صديقي وحبيبي

وعشير عمري! وهذا الشّخص الجميل
طالب العلم لا يعقل أيضا أن يرمى في
الحبس! أعرف أنّك تقبل شفاعتي. . .

الرّاهب : هل تعرف يا سيّدي الطيّب كيف أشتري
كتب ابن رشد؟ وعند من؟

شاهبندر التّجّار : لا يوجد عندنا شخص يدعى بهذا
الإسم، والله أعلم. . . هل هو يهوديّ
أم نصرانيّ؟

الرّاهب : مسلم يا سيّدي مسلم!

.........................(بالتّوازي مع ما سبق).........................

شخص : الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر!
أنا سلطانكم قبّلوا الأرض بين يديّ يا
قراطبة على وزن زنادقة وملاحدة
وفلاسفة! (يكرّر جملته مرارًا)

العريف : إنّي أعرف أنّ مراقبة هذه المدينة الشّريرة
عجز في عجز! هذه المدينة المشاغبة،

هذه المدينة الشّرسة، هذه المدينة
المجرمة، انظروا إلى هذا المجنون الّذي
يحسب نفسه السّلطان! ما هذا التّسيّب؟
من نكد حقوق الإنسان أن يطلق سراح
هذا المجنون من المارستان! ولِمَ لا
يطلق سراح المجرمين واللّصوص
والفلاسفة أيضا؟ أنا أقدّم استقالتي! ما
هذا الضّجيج، يا رجل؟ أليس في
علمك أنّنا نعدّ الإستعراض العسكري
للذّهاب إلى الحرب؟

................(بالتّوازي مع ما سبق : مسرح مرتجل)....................

الزّجّال ابن قُزْمان : (يعزف ويغنّي وجوقه النّسائي يردّد)

يا مَلِيح الدّنّيا قول علاشْ انت يا ابني
مَلُول (التّرديد)

لا تموتْ حتّى نراكْ
في البلد قاضي كذاك
وترى غاية مناك
ولا يلحقك خُمُول

يا مليح الـدّنيا قول   علاش انت يا ابني

ملول (التّرديد)

وسـمـا مـثـل الـنّحـاسْ

ونـفـاق فـي كـلّ راس

لـيـس يـجـي مَـاعْ نـعـاس

ويـلا عـرض وطـول

يا مليح الدّنيا قول   علاش انت يا ابني

ملول (التّرديد)

يـا لـبُـاب كـلّ الـلُّـبـاب

إلـق رجـلـك فـي الـرّكـاب

فأنت في أصحابك شـبـاب

فـأنـت فـي الـدّول هَـيُـول

يا مليح الّدنيا قول   علاش انت يا ابنـي

ملول (التّرديد)

نـدعـو الله الـمـجـيـب

والـفـرج مـنّـه قـريـب

والـهـوا ذا يـطـيـب

والـشِّـتَـا عـلـى الـنّزول

العريف : ما هذا الهرج؟ ما هذا التّجمّع على قارعة الطّريق العام؟ تفرّقوا، قشّركم الله! وأنت، تنّح عن هذا المكان! هذا مكان منّصة مولانا السّلطان والوزراء والحاشية والأعيان، أفلا ترانا نعمل منذ الصّباح الباكر بينما أنت تنهق بين هؤلاء الشّطّاحات؟ أرفع المستوى، فهو هابط! هيّا تفرّقوا! إنّك تجلب لنا العار أمام السيّاح الأجانب! ثمّ في هذا المكان المحترم، في هذا البلد الأمين. . . قد لوّثته قذارة وفسادا! عيب يا رجل عيب!

ابن قزمان : لا تكلّمني بهذه اللّغة الفجّة، يا قليل الحياء! إنّك تجهل من تخاطب!

العريف : كيف؟ ومن أخاطب يا سيّدي، ويا مسندي، ويا قرّة عيني؟ هل أنا في حضرة الخليفة هارون الرّشيد؟

ابن قزمان : أمامك بطل الإيداع الّذي لم يسبقه سابق ولن يلحقه لاحق! أمامكم إمام الزّجّالين

العرب وفنّان الشّعب الأندلسي ابن قزمان!
كما قالت الأجيال السّابقة وكما ستقول الأجيال اللاّحقة!

العريف : زجل؟ كلام فارغ يا مُهَنّهْ، يا كبير الركايب! لست حتّى في حجم فقيه صغير!

ابن قزمان : أنا أفضل من أيّ محدّث أو فقيه!

العريف : وهل تقارن وزنك بوزن أمين الأسواق؟

ابن قزمان : أنا الأمان، لا أغشّ ولا أدلّس!

العريف : إذن، أنت مثل شاهبندر التّجّار؟

ابن قزمان : يداي أنظف من يديه! أنا أثرى!

العريف : ونقيب البنّائين الّذين أقاموا الخِيرَالْدَا في إشبيلية؟

ابن قزمان : بنائي أمتن وأضخم! شكله أجمل وأرفع! معناه زماني وفي كلّ زمان!

العريف : حينئذ، حسبما أفهم أنت في مرتبة إمام جامع قرطبة الأعظم!

ابن قزمان : أنا أفصح وأبلغ! أنا أصدق في الكذب وأكذب في الصّدق!

العريف : لا تقل لي إذن يا كذّاب : أنت عالم الدّنيا وشيخ الزّمان كابن حزم؟

ابن قزمان : أنا أثقف وأعلم وأشمل!

العريف : استرني يا الله! وقاضي القضاة في الأندلس؟ ماذا تقول؟

ابن قزمان : أنا المفرط في الجور والظّلم، لكنْ أنا أعدل منه وأنصف!

العريف : وأخيرا وليس آخرا، هل أنت في قيمة وزير خطير؟

ابن قزمان : أنا الحرّية! نعم، أنا بحر من بحار الحريّة. . .

العريف : بحر؟ ولِمَ لا تكون بحر الظّلمات؟ محال والله ألف محال! حقّا، هذه مدينة الجنون! هذا يحسب نفسه مولانا السّلطان، وهذا المغنّي الرّخيص يحسب نفسه أعظم من

وزير! هذه منامة مفزعة! اقرصوني يا ناس
حتّى أستفيق! بالله عليك أشف غليلي
بجواب على هذا السؤّال : هل أنت سلطان؟
نعم هل أنت السّلطان؟

ابن قزمان : أنا سلطان الحرف والكلمة. أنا سلطان
الصّوت. أنا سلطان الجواب والقرار. أنا
سلطان المقام. أنا سلطان الموسيقى. أنا
سلطان الزّجل. أنا سلطان زماني، وليس
عليّ سلطان!

العريف : يكفي! أشهد أنّ لا إلاه إلاّ الله وأنّ محمّدا
رسول الله! أشهد. . . ولا أموت إلاّ على
دين النّبي وسنّته الشّريفة أنّك أعظم مغرور
على وجه الأرض قاطبة! منذ أن خلق الله
سيّدنا سليمان بهدهده وطاووسه إلى يوم
القيامة! لذلك قرّرت أنا عريف الميليشيا في
بطحاء باب الفتوح أن أقصيك وأنفيك أنت
وشطّاحاتك وآلاتك ودربوكتك إلى جزيرة
ما يورقة جزيرة المعز والكلاب! هيّا يا

شاهبندر التّجّار لا يمكن أن أقبل شفاعتك
في هذا المخلوق!

.................................(بالتّوازي مع ما سبق).................................

شاهبندر التّجّار : أنا جئتك لأمر آخر يا عريفنا الأجـل،
اسمع . . .

صوت صبّي من الكُتّاب : زدني يا سيّدي من كلام الله . . . وإذا
الملوك دخلوا قرية أفسدوها . . .

صوت المؤدّب (وهو يملي) : وجعلوا أعزّة تاء مربوطة
أهلها أذلّة تاء مربوطة وكذلك يفعلـون
نون معرّقة . . .

العريف : ما هذا يا هـذا؟ يـا مـؤدّب الـشرّ! يـا
متـحـرّش، يا مستـفـزّ، يا ابن رشـد
الصّغير! اسكت! اسكتـك الله وقـطـع
لسانك!

صوت المؤدّب : هذا من عندياتي؟ يـا أمّي! يا جاهل!
واصل يا بني : وإذا الملوك دخلوا قرية
أفسدوها . . .

العريف : حفّظ صبيانك سورة النّاس ليتجنّبوا الوسواس الخنّاس!

صوت المؤدّب : يا ناس! يا مؤمنين! إنّها فضيحة، والله فضيحة! هذا الشّخص يمارس الرّقّابة على كلام الله العزيز! من أنت حتّى تأمرني بألاّ أحفّظ سورة النّمل؟ من أين طلعت أيّها الشّيطان الرّجيم؟ يا ناس، حتّى كتاب الله لم يسلم من نفاقهم ومساومتهم وتأويلهم الفاسد ومصالحهم الشّخصية الخبيثة!... غايتكم، أنا أعرفها، أنا أفضحها على رؤوس الملأ : تقولون كما قال أسلافكم المنافقون : يا حبّذا الإمارة ولو على الحجارة! لعنة الله عليكم في اللّيل إذا يغشى وفي النّهار إذا تجلّى! واصل يا بني : باسم الله الرّحمان الرّحيم : وإذا الملوك...

العريف : والله أنا لم أقل شيئا... دعوني يا ناس! اتركوا سبيلي!

..................................(بالتّوازي مع ما سبق)..................................

القسّ هنري دي رانس : يقال إنّ كلّ فرد من أفراد أمّة العرب والإسلام هو فيلسوف! هل صحيح؟... أو، إن شئتَ، رياضي، أو طبيب، أو مهندس، أو حتّى موسيقي خطير أو من بناة المدن العظيمة... هل صحيح؟... باسم الأب والابن والرّوح القدس... حتّى صرنا نقول في أديرتنا وصومعاتنا هذا الشّخص إنّما هو عربيّ، فنعني بذلك أنّه فيلسوف! صارت العروبة والإسلام أمرا مرادفا للفلسفة!... هل صحيح أنّ هذه الأمّة قد بلغت هذا الشّأن من الحضارة، فتجاوزت بذلك أثينا وروما والإسكندريّة وجنديسابور؟ عجيب! من يصدّق أنّ الجميع فلاسفة وعلماء

ومهندسون وأطبّاء وحرفيّون وفنّانـون؟ الجميع؟ مجـرّد كـنّاس ينظّف شـوارع قرطبة شاعـر؟ أقـلّ كاتب في دواويـن الدّولة يعرف أصناف الأمم؟ أين نحـن من هؤلاء؟ ماذا فـعـلـت أمّة العـروبـة والإسلام حتّى بلغت المعرفة إلى هـذا الإنتشار؟ كيف هـي قِيَمُها ومُثلها؟ مـا هي النّواعير الخافية الّتي تدفع بها دائما إلى الأمام؟ أريد أن أفهم!.. أسـمـاء المسلمين رغم حروبنا الصّليبية كالنّجوم قد ملأت سماءنا، قد شغلتنا إلى حـدّ الهوس في حياتنا اليوميّة البسيطة، فما بالك إذن في حياتنا التّجارية والماليّة؟! بلغت أسواقهم وسلعهـم إلـى شـمـال ألمانيا وروسيا، وبلغت عملتهم إلى بلاد الفيكينغ، وبلغ سفراؤهم إلـى الأرض الخراب ذات الـثّلوج الدّائمة على مـرّ الدّهور التي لا يعود منـهـا أيّ إنسان!

ونحن صفوة أمّنا الكنيسة عرّبونا بدون غـزو ولا سـلاح! لـكـن بـأيّ شـيء؟ بالفلسفة طبعا، وبـالـطّبّ، وبالفلك، وبالهندسة، وبالمعمار. . . باسم الأب والابـن والـروّح الـقـدس! هـل صحيح؟ . . . انظر إلى زهرة شبابـنـا، إنّهم لا يتخاطبـون إلاّ بالعربـيّـة، ولا يتكاتبون إلاّ شعرا عربيّا، ولا يتحدّثون إلاّ عن ابن سينا. والأدهى من ذلـك، أنّ آباءهم النّبلاء يعيشون في قصورهم كما يعيش العرب بالعـطـر والـحـريـر والذّهب والبخور وماء النّسرين! صارت هذه الأمّة القدوة والمرجع، الـنّموذج والغاية! أسائل نفسي دائمـا : مـا هـو السّرّ؟ لا بدّ أن أعاين بنفسي هذه الأمّة حتّى أقف على تلك الـنّواعير الخافيـة التي لا يكتشفهـا إلاّ من وهبه الله نفـاذ البصيرة. . . استغفر الله! بـاسـم الأب والابن والـرّوح القدس! سأهدي إلـى

قداسة البابا ملاحظاتي وآرائي بعد رجوعي من قرطبة. . . لكن ألم نكن نقول في الماضي القريب إنّ جميع الطّرقات تؤدّي إلى رومة؟ فما بالها اليوم أوصلتني إلى قرطبة؟ باسم الأب والابن والرّوح القدس! آمين.

..................................(بالتّوازي مع ما سبق)..................................

الشّخص : نعم قبضوا عليه، وهو يستعدّ للفرار إلى طليطلة. . .

الكتبي : لا ترفع صوتك. هل أعلمت جميع الزّملاء؟ هل أعلمت شيخنا ابن رشد؟ أشرقت الأنوار يا شاهبندر التّجّار! أهلا وسهلا! هذه خطوة عزيزة لم أكن أتخيّلها ولو في المنام! مرني بما تحبّ في هذه السّوق الكاسدة الخاوية على عروشها، فإنّي أستطيع أن أظفر لك حتّى بحليب الغولة! . . .

شاهبندر التّجّار : شدّة إن شاء الله تزول! . . . يا سيّدي بما أنّ هناك مؤتمرا عالميا في مستوى القمّة، وما أدراك، سيضمّ إن شاء الله تجّار الجملة والتّفصيل والسّماسرة والوكلاء، ومن إليهم من الصّرّافين وأصحاب الموازين والمكاييل من مصر والشّام واليمن واليابان وبريطانيا والكونغو وإلخ . . .

الكتبي : يا معلّمي، أتشرّف حتّى بالحمّالين والنّشّالين في مستوى القمّة! يا ولد تحرّك، وأنت راقد، هات الشّربات والبناضج لمولانا شاهبندر التّجّار! . . .

شاهبندر التّجّار : . . . وحيث إنّ هناك مؤتمرا، وما أدراك، فلقد قرّرت أن أقتني بعض الكتب . . .

الكتبي : هذا قرار خطير، ويا له من قرار لا يتّخذه إلاّ رجل خطير! في غاية

الخطورة! يا ولد، هات المرش! ماء الورد وماء النّسرين! والمحكوكة والمدموجة!

شاهبندر التّجّار : الحَقْ الحَقْ، إنّي بعد تفكير طويل وعميق طوال الأيّام واللّيالي قررّت أن أشتري من محلّك الفخم الّذي لا يقصده إلاّ الأعيان. . .

الكتبي : . . . شكرا على هذه الثّقة الغالية. . .

شاهبندر التّجّار : . . . قررّت أن أشتري خمسمائة وخمسين رطلا من الكتب. . .

الكتبي : رطلا؟! خمسمائة وخمسين رطلا من الكتب؟ بالميزان؟

شاهبندر التّجّار : نعم بالميزان! أريد سلعة من أعلى العال من أفخر المجلّدات المزيّنة، المزركشة، المبرقشة بماء الذّهب، المُقَرْنَصَة، المُمَصْرَنَة، أهكذا يقال في سوقكهم؟ المُقَرْنَصَة، المُمَصْرَنَة؟

الكتبي : نعم، يقال كلّ شيء، حتّى يقال ما لا يقال! لكن، سامحني يا معلّمي، أنت تعلم أنّي أبيع الكتب بالشّبر والذّراع . . . تماما كتّجار الحرير والدّيباج والمعلّقات السّبع!

شاهبندر التّجّار : بالشّبر والذّراع؟ عجيب! هذه المدموجة اللّطيفة هائلة! لكن شربات الورد أمتع وألذّ. . . .

الكتبي : اشرب يا معلّمي، اشرب حتّى تزول هذه الشّرقة!

شاهبندر التّجّار : غريب! جميع الكتبيّن في قرطبة يبيعون بالميزان إلاّ أنت؟ إذن كتبك أثمن من كتبهم؟

الكتبي : وهل في الله شكّ؟ بل أشرف! لا يشتريها إلاّ الأعيان! فهذا يطلب كتابا طويلا في طول الخيزران، والآخر يحبّ كتابا عريضا في عرض قصر السلطان،

والزّبون الثّالث لا يشتهي المسكين إلاّ
الكتاب الممتلىء بالشّحم واللّحم!
ومنهم من يرغب في كتاب مربوع القدّ
كأنّه لصّ بغداد، والآخر يساوم في
كتاب قزم من أقزام يأجوج ومأجوج،
والثّالث لا يرضى إلاّ بالكتاب العملاق
العفريت في حجم إرم ذات العماد!

شاهبندر التّجّار : يكفي! يكفي! أقنعتني بهذه العجائب
والغرائب والله! إذن، اختر لي من
مخبآتك العزيزة النّفيسة خمسمائة
وخمسين شبرا وذراعا وميلا وفرسخا
من هذه الكتب الأغوال والأهوال.
وزدني بارك الله فيك من هذه الشّربات!
حتّى أهضم هذه العجائب! وهذه
المدموجة!

الكتبي : يا ولد، الشّربات! وإذا كانت هذه
الكتب العملاقة مكتوبة بالحبشي
والعبراني واللاّتيني؟

شاهبندر التّجّار : ومن سيقرأها؟ أو تحسب أنّ لي كُتّابا في قصري؟ زد عليها بالإفرنجي والتّركي والرّومي والفارسي! زد ثمّ زد عليها بالقوطي والصّيني والهندي وبلغة جزر الواقواق!. . .

الكتبي : لكن، يا معلّمي، ما زلت أترقّب جوابك الظّريف على سؤالي اللّطيف : ما علاقة مؤتمر القمّة بهذه الكتب!؟

شاهبندر التّجّار : يا خسارة! حسبتك تاجرا ألمعيّا حاذقا! هذه الكتب هي للزّينة في قصري قصر الدّهشة! حتّى إذا ما رآها المشاركون في المؤتمر صاحوا : الله! الله! الله أكبر! وقالوا : شاهبندر تجّار قرطبة هو الأجدر برئاسة تجارة العالم! بما أنّه عالم علاّمة وحيث إنّه فاهم فهّامة بجميع اللّغات! وبكم هذه الكتب؟

الكتبي : خمسة آلاف دينار!

شاهبندر التّجّار : سجّلها على حسابي! ولا تنس يا حبيبي كتب فلسفة ابن رشد، ضمّها إلى بقيّة تلك الكتب العفاريت، وتخلّص منها حتّى لا تداهمك الميليشيا. . . هيا، السّلام عليكم!

تنتهي هذه المشاهد المتوازية بأصداء لضرب الطّبول والصّنوج، ونفخ الأبواق، ووقع جزمات الجيش الموحّدي على بلاط البطحاء.

أخوان في الغربة

تحت قنطرة الوادي الكبير بقرطبة، على رصيف إحدى الضفّتين تقبع بقايا بشريّة محطّمة تعسة... الميليشيا من حين إلى آخر تراقب...

موسى بن ميمون : يا أبا الوليد، اسمعني، يا أبا الوليد...
لا أستطيع أن أرفع صوتي... اقترب منّي... هل عرفتني الآن؟!

ابن رشد : هذا أنت يا ابن ميمون؟ ماذا تفعل في هذا المكان الموبوء؟...

موسى بن ميمون : يا ميليشيا، هل تشرب معي هذه الكأس من خمرة شَرِيش؟ إنّها أجود خمرة في هذا العالم...

عريف الميليشيا : أو تحسبني سكّيرا مثلك، يا خنزير!

ابن رشد : تسكر يا موسى؟

موسى بن ميمون : الغربة أسكرتني لا الخمرة! إنّي غريب في وطني، منبوذ... وأعوان السّلطان،

كما تعلم، قد حاصروا المدينة لمطاردة
اليهود والفلاسفة...

ابن رشد : فتّشوا داري، قلّبوها رأسا على عقب،
اقتلعوا الزّليج والرّخام عساهم يظفرون
بأحد كتبي... ثمّ انصرفوا...

العريف : تتهامسان منذ زمان!... ما هو هذا
السّرّ؟ أعرفكما جيّدا كأنّكما أخوَان!

موسى بن ميمون : يا سيّدي، صوتي أنا أطرش لا يسمع!
وصوته هو أبحّ من شدّة الصّراخ والغناء!
فلم يطرب على زجله أيٌّ حمار من
هؤلاء الحمير!

العريف : إذا كان لكما سرّ، فإنّي على استعداد
لقبوله... هيّا مساء الخير!

موسى بن ميمون : اذهب لعنة الله عليك! يا أبا الوليد،
هل يعجبك لباسي الأزرق الّذي
اضطرب فيه كأنّي بهلوان سيرك؟!
فرضوه عليّ لأنّي يهوديّ...

ابن رشد : فرضوه قبلك على ابراهام بن شبروط، وعلى جميع أحبار الأندلس والمغارب!

موسى بن ميمون : وأنت لباسك رثّ قديم، كأنّه يميل إلى الزّرقة!

ابن رشد : دعنا من اللّباس! . . . ثمّ ماذا ستفعل؟ ستبقى؟

بائع طعام الكلاب : يَا الحَايْرَةْ! أكلت وما شبعتِ، يَا الحَايْرَةْ! هذا السّمين باللّحم والمخ، عظم بقري من أعلى العال. . . هات صحنك! بدرهم واحد للكلب، وبدرهمين للبشر! يا الحايرةْ! أكلت وما شبعت! مع المرق، والكسكسي، والمقرونة، الجلبانة، واللّوبيا، والهريسة! بدرهم واحد لكلب الدّم، وكلب الشّوك، وكلب السّوق! بزوج دراهم لبني آدم! يا الحَايْرَةَ! وما بشمت! يا الحَايْرَةَ! للسكارى، والهمّال، والسّراق، والصّعاليك، والهاربين من

السّلطان، هات صحنك! والملوخية، والعقد، والمخ! عندي السّمين! يا الحَايْرَةَ!. . .

موسى بن ميمون : يحسبون أنّي عجوز سكّير، شحّاذ، لا عائلة لي، مقطوع. ماذا سأقول لهم لو عرفوني، يا أستاذي؟ إنّي لم أحترف الفلسفة؟ إنّي لا أعرفك؟ لكنّ يهود الأندلس جميعا أخذوا عنك الفلسفة ، وعلم الكلام، وعلم النّحو! وسيأخذ عنك الإفرنج، وستأتي إليك الدّنيا صاغرة! لو قبضوا عليّ، فلن أبيعك للسّلطان بالثّمن الباهظ ولا بالثّمن البخس. . . بالمجّان! لقد نوّرتني، وأنرت فكري، ووسّعت آفاق معارفي وإدراكي، لكنّ المقام بأرض لا فكر فيها أرض حرام زقّوم! سأرحل!. . .

بائع الملابس القديمة : يا عريس العرايس! يا سلطان السّلاطين! هذا يوم فرحك! الجبّة

بعشرهْ، والسّروال بعشرهْ! والشّملة
بخمسهْ! يا سلطان السْلاطين، هذا يوم
دخولك! هذا يوم عزّك! خصم خاص
بخمسين بالمائة لفائدة المطلّقين،
والهاربين من النّساء والعائلة! خصم
خاصّ لخمسة وسبعين بالمائة
للعاجزين! يا عريس العرايسْ! يا سلطان
السّلاطين! هذا يوم فرحك، ودخولك
وعزّك!... الجبّة...

موسى بن ميمون : سأرحل إلى مصر، لقد وصلتني رسالة
سريّة من السّلطان صلاح الدّين لأكون
طبيبه الخاصّ... سأرحل إلى سماء
رحيمة تحتضن جميع الملل والنّحل!
سأحمل معي وطني في صدري
وفكري، لقد انتهت الأندلس! انتهت!
بالأمس القريب، سقطت طليطلة،
واليوم؟ والغد؟ ولا غالب إلاّ الله كما
يقول المسلمون! وأنت ماذا ستفعل؟

ابن رشد : يا موسى أعود إلى داري، وليقبضوا
علي هناك. لا بدّ من مواجهتهم، ولو
أنّي أعرف أنّهم الغالبون! لا فائدة من
وراء الفرار كأنّي مجرم!... الوداع!

في المدرسة الفلسفيّة الأندلسيّة

على مقربة من قنطرة الوادي الكبير حديقة كبيرة، واسعة الأرجاء، مهملة الزّرع، مكسرة الزّليج، كانت مقرّاً للمدرسة الفلسفية الأندلسية، بجوارها دار ابن رشد. الأصيل، آخر أشّعة صفراء ذابلة... خوار ثيران ترعى على الضفّة...

ابن رشد : ... ليقبضوا عليّ في مدرستي، هناك في داري...

ابن طَلّموس : يا شيخي، مرحبا بك في مدرستك، وفي دارك!

ابنته تفرح به وتلبسه برنسه الأحمر

ابن رشد : ماذا تفعل في هذا المكان؟

ابن طَلّموس : التجأت إليه بعد أن غادروا المكان دون رجعة.. لا أكثر أمانا ولا اطمئنانا من المدرسة! منذ أسبوع، أراقب الحديقة لأني

كنت على يقيـن أنّك ستعود. . . أردت أن أكلّمك في أمر طالما اختلج في صدري، لا سيّما اثر قيام هذه الأزمة. . .

ابن رشد : ما الّذي يحيّرك؟

ابن طلّموس : والله، كيف أقول؟ . . . لقد استعصى عليّ الكلام حتّى صرت عـيّيا! إجمالا، لـقـد أضرّت بي الفلسفة فـي هـذا الـمـجـتـمـع المتحجّر، المتعصّب لأنّه جاهل! وأنت يا شيخي مـتّفق معي علـى أنّ الزّهرة لا تنوّر على صخرة صمّاء! وعلى أنّ الأبقار لا تميّز بين الزّهرة والبعرة! وعلـى ألاّ فائدة في أن نحرث في مياه الوادي الكبير! أنت يا شيخي متّفق معي؟ . . .

ابن رشد : إنّي استمع إليك جيّدا. . . نفّس عن كربك وهمّك!

ابن طلّموس : بالجملة، حتّى والدي قد أغلق باب الـدّار في وجهي، فطردني، وأنكرني، وتوعّدني

بأنّ يدلّ السّلطان على مخبئي! أمّا أحبابي وزملائي فقد تجاهلوني تجاهلا تامًا خشية أن يرميهم السّلطان في الحبس، هم وجميع الجيران، والأقارب، والحيّ بأكمله، وحتّى مدينة قرطبة بأسرها! فأحبابي وزملائي قد تخرّجوا مهندسين وتقنيّين، واحتلّوا مناصب عاليّة في حكومة السّلطان. أمّا أنا فقد تعلّمت الفلسفة ولم أحصل على أيّ شيء إلاّ التّهمة، والشّبهة! حظّي بائس، ونصيبي تعس!

ابن رشد : وبعد هذه الشّكوى، تريد أن تقول : ماذا؟

ابن طلّموس : والله يا شيخي، الحقيقة أقول، لقد ضيّقت عليّ بفلسفتك! فلم تعلّمني إلاّ فلسفة أرسطو، وشروحك على مؤلّفاته كأنّك فقيه تشرح الحديث والقرآن. ولم تعلّمني الشّعر... ولم تعلمني الطّبّ... ولم تعلّمني القضاء والتّشريع...

ابن رشد : ألم تقل إنّك تريد...

ابن طَلموس : دعني أتمّم كلامي... يا شيخي! فلو كنتُ شاعرا خفيفا ظريفا لطيفا لمدحت السّلطان، ولكافأني السّلطان بمال أستعين به على الزّواج حتّى لا أظلّ أعزب! ولو كنت طبيبا لحلبت أموال المرضى، وصرت نجما في الطبّ وعند النّاس...

ابن رشد : ... أعوذ بالله من الشّيطان الرجيم!...

ابن طَلموس : ... ولو كنت قاضيا لاستطعت احتلال أرفع المواقع الإجتماعيّة! أمّا أرسطو، دائما أرسطو، أبدا أرسطو! فهو لا يسمن ولا يغني من جوع...

ابن رشد : ... هذا كلام العوام الجهّال! هذا كلام الجاحد...

ابن طَلموس : لقد خسرت شبابي في أرسطو! أرسطو فقط ولا غير أرسطو! ولم تعلّمني أفلاطون وأفلوطين وبرمينيدس وهيراقليطس! حتّى أشيّد لهم مدينة المدن كلّها حلم، وخيال مجنّح.

ابن رشد : يا ابن طَلْموس! لشدّ ما تمنّيت أن تدير هذه المدرسة بعدي! فتكـون خلَفِي، كما كنت أنا خلف ابن الطّفيل، وكما كان ابن الطّفيل خلف ابن باجة! . . .

ابن طَلْموس : لتدريس أرسطو؟ لا والله! ألا إنّ أرسطو يا شيخي هو ـ إجمالا ـ فيلسوف توصيفـي، تقريري، تبسيطي، تلخيصي، تعليـمـي، تنظيمي، ترتيبي!

ابن رشد : الفلسفة ليست إجمالا ولاتعميما!

ابن طَلْموس : مللت منه ومن تصنيفاته للبشر وللحيوان، وللأشياء، وللعلم، وللطبيعـة ولـمـا بـعـد الطبيعة! لا حريّة للفكر داخل نظام أرسطو، مثلما داخل نظام السّلطان! إمّا أن تقبله وإمّا أن ترفضه! وأنا أتجاوزه وأرفضه!

ابن رشد : لكن يا ابن طَلْموس، هو الّذي علّمك كيف تبحث عن الحقيقة! . . .

ابن طَلّموس : من خلال منطقه طبعا! منطقه آلة جهنّمية هو الّذي صنعها، ولكنّه قال إنّها منزّهة عن أهواء البشر، وهو الّذي أحكم وظيفتها، وقال لسان حاله إنّها صالحة لكلّ فكر، ولكلّ مكان ولكلّ زمان! لأنّها فخّ بل كأنّها لعبة أطفال من تلك الألعاب الثّقيلة! ما عليك إلاّ أن تعمّرها، وهي معمّرة دوما، حتّى تتحرّك من تلقاء نفسها! حتّى الغزالي قد وقع في هذا الفخّ، وتلك دلالة على رداءة تفكيره! هيهات ثمّ هيهات يا شيخي أن يقيس منطق أرسطو الحقيقة بمقياسه المعوّج! كلّ ما في الدّنيا من اضطراب ينكر منطق أرسطو ويكذّبه!

ابن رشد : أنت المعوّج! هذا كلام متناقض. . . لم أسمع أقسى منه ولو على ألسنة الفقهاء والمتكلّمين!

ابن طَلّموس : نعم، سأستنجد بالفقهاء، أولئك الحمقى السّذّج، حتّى لا يحبسني السّلطان بسبب

الفلسفة! لأنّي سأعلّمهم منطق أرسطو الّذي يتهافتون عليه كتهافت الذّبّان القذر على العسل! لن أدير مدرستك يا ابن رشد، الوداع! لقد انتهت الفلسفة! وانتهت الأندلس! ولا غالب إلاّ الله!

ابن رشد : لن تنتهي الفلسفة هنا في الأندلس وفي غير الأندلس! ما دام الإنسان يطلب الحقيقة!

خَتْم

أوبيرات محاكمة ابن رشد في جامع قرطبة الأعظم

ابن رشد : السّلام على مولانا السّلطان المنصور وعلى مجلسه والرّحمة والبركات. . .

الرّواة : . . . بَأْسٌ، بَلَسٌ، تَعَسٌ، دَنَسٌ، خَرَسٌ، رَمَسٌ، شَرَسٌ، عَسْعَسٌ، غَلَسٌ، فَلَسٌ، قَبَسٌ، مَكَسٌ، نَحَسٌ، نَسْنَسٌ، نَكَسٌ، هَجَسٌ، هَوَسٌ، خَنَسٌ، وَسْوَسٌ، يَأْسٌ.

أبو يوسف يعقوب: أخيرا. . . جئت!

الرّواة : أخرجْ، أرجعْ، اذهبْ، ارحلْ، اغربْ، بارِحْ، امضِ، غادرْ، تراجعْ، فارقْ، تنحّ، سرْ، توارَ، طرْ، تكسّرْ، دبْ، تشتّت، تبدّد، تبخّر.

الوزير ابن عطيّة : تشجّع!. . . هو خادمك وعبدك!

أبو يوسف يعقوب: أخيرا، ثمّ أخيرا، ثمّ أخيرا، جئت! اجلس يا. . شيخي أبا الوليد. . لِمَ أنت

واقف على عتبة باب بيت الله؟
تفضّل...

الوزير ابن عطيّة : واقفا متّهما بين يديك، دعه! دعه!
دعه! متّهما بين يديك واقفا!

الرّواة : ... عن سعد عن سعيد عن أسعد عن
مسعود عن ساعد عن متساعد عن سعد
السّعود عن مسعاد عن سُوَيَعد عن سعيد
عن سَعَادة عن مُسَيْعد عن سعدون عن
سعدين عن سَعْدان عن سَعود عن إسعاد
عن سَعاد عن سُعْدى عن سَعْدات أنه
قال...

أبو يوسف يعقوب: تقدّم أبا الوليد... زد، اقترب من
حضرتنا وحضيرتنا، من جماعتنا
وإجماعنا، من كلمتنا وكلامنا أكثر
فأكثر... زد ثمّ زد ثمّ زد... لكن
قبل أن تجلس ذكّر المجلس...

الوزير ابن عطيّة : تحياتْ؟ ملاطفاتْ؟ مجاملاتْ؟
هيلمنات؟ تشريفات؟ كلمات ظريفات؟

سلاميات؟ إسلاميات؟ سلطانيات؟ تكريمات؟

الرّواة : قرن ثور كسّره! ناب وحش قلّعه! رأس غول ادمغه! جرم كفر اقتله، اقتله، اقتله!

ابن رشد : سأذكّر المجلس؟ أريد أن أفهم؟! . . .

أبو يوسف يعقوب: بكتبك طبعا! . . . كتبك، أوراقك، صحائفك، أقلامك، علومك، فنونك، دروسك.

ابن رشد : كتبي فيها مطوّلات ومختصرات ليس هذا مكانها. فليرجع إليها من يريد، لا أسمح لأحد منكم بمناقشتها لأنّها ليست موضوع المحاكمة.

الرّواة : متطاولٌ، متكبّر، متعاظم، متعالم، متطفّل، متجبّر، متهافت، متغطرس.

الوزير ابن عطيّة : لائحات طويلات فيها إدانات جهنّميّات ضد فلسفات كافرات محلدات. . .

ابن رشد : تريدون شخصي؟ هـذا هـو مـوضـوع المحاكمة!

الرّواة : أخطأتَ، غالطتَ، زوّرتَ، داهنـتَ، نافقـتَ، مـوّهتَ، كذبـتَ، افتريـتَ، دلّستَ، ظلمتَ، لعبتَ خسرتَ.

الوزير ابن عطيّة : أفشيت الكفر والإلحاد بين المسلميـن للنّيل من وحدتهم الصّمّاء!

شيخ الرّواة : كتاب شرح ما بعد الـطّبيعة، الصّفحة الحاديـة والثّلاثون، الـسّطر الـسّادس، الكلمة الثّانية والكلمة الخامسة، الهامش في الطّرّة عدد أربعة.

الوزير ابن عطيّة : دعوت إلى مؤاخاة اليهود والـنّصـارى والبربر والنّساء وعامة النّاس للنّيل مـن عادات المجتمع الإسلامي الأندلسـي! وامجتمعاه! وا إسلاماه! وا أندلـسـاه! واأصالتاه!

شيخ الرّواة : كتاب شرح جـمـهـوريـة أفـلاطـون، الصّفحة الثّانية والخمسون، والصّفحـة

السّادسة والسّبعون، والصّفحة الحادية عشرة بعد المائة، الأسطر الحادي عشر، والسّابع، والرّابع عشر، الهوامش في الطّرّة عدد ثلاثة وعدد ثمانية، وعدد أحد عشر مكرّر.

الوزير ابن عطيّة : هجوت الفقهاء وسفّهت المتكلّمين بينما مدحت الملاحدة، وأثنيت على الكفّار والمتفلسفين، وتربّصت، وهاجمت، وشنّعت، وشتمت حجّة الإسلام وإمام الأنام أبا حامد الغزالي لتقويض أركان الدّين الحنيف.

شيخ الرّواة : كتاب تهافت التّهافت الصّفحة الثّانية والرّابعة والخامسة والسّابعة والتّاسعة والعشرون والحاديّة والعشرون والثّالثة والثّلاثون والرّابعة والأربعون والخامسة والخمسون والسّادسة والسّتون والسّابعة والسّبعون والثّامنة والثّمانون والتّاسعة والتّسعون... إلى آخر الكتاب، وآخر الأسطر، وآخر الهوامش!

الوزير ابن عطيّة : شككت المسلمين في العصور الإسلاميّة الذّهبيّة، ولا سيّما في عهد الخلفاء الرّاشدين وزمانهم النّورانيّ المضيء بالعدل والقسطاس. فلم توجد حروب ولا فتن، ولا قاتل ولا مقتول، ولا ظالم ولا مظلوم، ولا فلاسفة ولا ملحدون، ولا قويّ ولا ضعيف، ولا غنيّ ولا فقير، ولا يتيم ولا أرملة، ولا ابن سبيل. لقد شككت المسلمين فيما يتخيّلون ويتصوّرون، ويحلمون، ويتشخّصون! وخيالهم الحالم هو عماد هذه الدّولة المسلمة الإسلاميّة! أولا تعلم أنّ عهد الخلفاء الرّاشدين هو عهد الجنّة، الجنّة كجنّة الأندلس!؟...

شيخ الرّواة : روح شروحه كلّها وتآليفه وكتبه كافة! جميع الصّفحات، وجميع السّطور، وجميع الهوامش يجب حرقها!

الوزير ابن عطيّة : شككت في نسب مولانا السّلطان، فجعلته من البربر للنّيل من هيبة الدّولة،

وناموس الدّولة، ومناعة الدّولة، وأمن الدّولة الدّاخلي والخارجي، ولتثبيط العزائم الصّادقة حتّى لا يتطوّعوا في الجهاد في سبيل الله ضدّ الأذفونش الرّومي الكلب!

شيخ الرّواة : جميع كتبه فيما قالته وفيما لم تقله، حاضرا ومستقبلا، في الدّنيا والآخرة!

الوزير ابن عطيّة : تزعم أنّ هناك حقيقتين حقيقة دينيّة وحقيقة فلسفيّة يعني لا دينيّة! فتوازي بين الدّين والفلسفة؟

شيخ الرّواة : زنديقٌ ودَنْديقٌ، وكفرٌ وتطليقٌ، وإلحادٌ وتغريقٌ، وتْشَمْلِيقٌ وفرقٌ وتفريقٌ، وفسقٌ وتفسيقٌ، ومروقٌ وتمريقٌ، وتمزيقٌ وتحريقٌ وتخريقٌ. . .

ابن رشد : هل أتى وقت الإجابة على هذه الخزعبلات السّياسيّة؟

الوزير ابن عطيّة : الجزاء؟ ما هو الجزاء؟ ثلاثمائة جلدة!

أبو يوسف يعقوب: لا! نعم! لا! نعم!لا! نـعـم! لا! لا! لا!

الوزير ابن عطيّة : نبصق عليه، ونقطع دابر الـفـلاسـفـة والفلسفة في الأندلس والمغارب ونحرق الكتب.

أبو يوسف يعقوب: نعم! نعم! نعم! أمْ! هَمْ! عَمْ! مَ مْ!

الرّواة : ابصقوا عليه! ومن لم يبصق فلا إسلام له! ابصقـوا! ثـمّ احملوه إلى اليـهـود أصحابه! لأنّه أشنع من اليهود والنّصارى والبربر والنّساء، عليه، وفوقه، وتحته، وجانبه، وأمامه، ووراءه، ابصقوا عليه!

الرّاوي الخامس : أعفيكم من سلاسل الـرّواة والعنعنة، لألقي بين أيديكم آخر الأحاديـث فـي مجلسكم هذا. أقول وقول الله خير من قولي : لما امتحن السّلطان أبو يوسف يعقوب الموحّدي الفيلسوف أبا الوليد محـمّد بـن رشـد، قـدّس الله روحه،

آمين، وجرّده من وظائفه كطبيب شخصيّ للسلطان، وقاضي قضاة قرطبة، ومدرّس بالجامع الأعظم، ونفاه إلى قرية أليسانة اليهودية القريبة من قرطبة، وأجبره على الإقامة بها، ومنعه من السفّر إلى خارجها، احتجّت الأندلس بأسرها، وضجّت المغارب من أقصاها إلى أدناها، وتظاهر النّاس، وكادت تندلع فتنة لولا ألطاف الله تعالى، لما كان للفيلسوف ابن رشد من منزلة عظيمة في مجتمع الأندلس والمغارب والمشارق وفي فكر النّخبة.

شيخ الرّواة : اسكت يا كذّاب! حديثك موضوع ومدلّس. والصّحيح هو عندي، أرويه لكم بكلّ أمانة.

باسم الله الرّحمان الرّحيم، حدّثنا المؤرّخ الثّبت الثّقة أبو عبد الله محمّد بن سيّد النّاس نزيل غرناطة قال سمعت

من لا أتّهِمُ عن أبي زكرياء الطَّلَمَنكي يقول : لمّا امتحن مولانا السّلطان أبو يوسف يعقوب الموحّدي، دام عزّه وعلاه، الزّنديق ابن رشد، وسخط عليه سخطة سلطانيّة ساحقة ماحقة، بعد محاكمته بجامع قرطبة الأعظم المعمور، ومكافحته بالأدلّة والبراهين، وإثبات شكّه في الدّين الإسلامي الحنيف أمام الشّهود، أمر مولانا السّلطان بأن يبصق النّاس على وجه الكافر ابن رشد، ثمّ جرّده من جميع ما كلّفه به من مهمّ وشأن في الدّولة الموحّديّة المنصورة، وصادر جميع كتبه الشّيطانية، وأمر وزيره ابن عطيّة بحرقها في باب الفتوح بقرطبة على مرأى ومسمع من الكبير والصّغير، عبرة لمن اعتبر، وزجّ بالملحد المنافق في قرية أليسانة اليهودية، القريبة من قرطبة، نظرا

لكون كتاب الإمام ابن حزم قد أشار من طرف خفيّ إلى انتماء ابن رشد إلى اليهود. ولاحق مولانا السّلطان بعد ذلك جميع تلاميذ ابن رشد وترصّدهم وتعقّبهم، وأنزل بهم أشدّ العقاب. وخلافا لما قيل، فإنّ الأندلس لم تحتج، ولم تضج المغارب ولا المشارق، ولم يستنكر المثقّفون، ولم تحرّك الخاصّة ولا العامّة ساكنا، وكأنّ شيئا لم يكن، بل نزل الحكم السّلطاني العادل الشّريف بردا وسلاما على الأندلس والمغارب والمشارق. فتبادل الروّاة والمحدّثون والفقهاء التّهاني. وأقيمت المفرّحات في جميع أنحاء السّلطنة، وشمت النّاس بعدوّ الله ابن رشد، وأمر الوزير ابن عطيّة الشّعراء بنظم قصائد لهجاء ابن رشد، وعلى رأسهم الشّاعر الرّحّالة الفقيه الورع التّقيّ

أبو الحسين بن جُبَيْر فقال لا فضّ فوه :

الآن أيقن ابـــن رشد

أن تـــوالـيفـــه توالف

يا ظالمـــا نفسه تأمّل

هل ثمّة اليوم من توالف

وبذلك قطع مولانا السّلطان دابر الفلسفة وهتك سترها، واستأصل أيمّة السّوء فيها. وانتهت بحمد الله جميع العلوم العقليـة من الدّيار الأندلسيّة والمغربيّة، وعوّضتها عن جدارة العلـوم الـنّقليـة، ولله الـمـنّة والفضل الّذي رفع الغمّة وطمأن الأمّة.

خشبة المسرح هي مركز العالم

تشارلز سكوت: أطردوك يا ابن رشد؟ فمرحبا بك بين أحضاننا، وعلى عتباتنا، وفي ديارنا !
أخرجوك من الباب الضّيّق القصير؟ فنحن ندخلك من الباب الواسع العريض !
أبعدوك؟ فنحن نقرّبك إلينا ! أقصوك ؟ لأمر تافه فيه مكيدة؟ فنحن ها هنا ندمجك في عقولنا وأشخاصنا، في مدارسنا وأديرتنا،
نفوك ؟ فنحن لا بدّ أن نصل إليك رغم الحصار المضروب عليك ! سبّوك وشتموك؟ حاكوا لك الدّسائس وجحدوك،
أنكروك وهجروك؟ ابتذلوك وأهانوك؟ فنحن نمدحك ونطريك، ونحن نثني عليك ونمجدك ! بصقوا على وجهك؟ فنحن نرسم لوجهك أجمل الرّسم، ونحن نتوّجك بعمامة من الغار ! تصيّدوا طلبتك ومريديك؟

ها نحن تلاميذك وأعوانك ومـنـاصـروك !
حرقوا كتبك؟ فنحن نحتفل بها وننسخـهـا
بالـحـرف الـلاّتينـي الـمـذّهب وندرسـهـا
ونترجمها! ونحفظها ونصونهـا مـن أيـدي
الإجرام والفناء! أطفأوا شمعتك ؟ فنـحـن
نشعلها لك، ونشعل ألف شمعدان تحتفـي
بك علـى رأس كـلّ ألف سنـة حـتّى تنـيـر
شمعتك الـدّنيا بأسرها، الجيل بعد الجيـل
وإلى أن تطلع الـشّمس من الغرب، وندقّ
نواقيس كنائسنا ابتهـالا لله لأنّه وهبك إلينـا
لتنهض بعقولنا من سباتها المظلم العميق.
فأنت المشعـل الّذي انتقل من الـشّرق إلى
الغرب. . .

التّاجر ابن شَعْلان : . . . هذه السّنوات الأخيرة، قضّيتها
أتسكّع في نواحي أوروبا الـشّمالية من
ميناء إلى ميناء، ومن سوق إلى سوق،
ومن مصرف إلى آخر، إلى أن وصلت
بقافلتي إلى إيكس لاشابال فاعدة عظيم

الإفرنج شَرْلُمَان صديق الخليفة هارون الرّشيد. وكنت يومها على أهبة الرّجوع إلى قرطبة بقناطر مقنطرة من جلود الوبر والفرو الثّمينة الّتي لا يقتنيها إلاّ أثرياء الأندلس بأرفع الأسعار. هناك، وقف عليّ راهب عجوز فان في سنّ سيّدنا نوح عليه السّلام يدبّ دبيب الهالك نحو قبره، ولحيته وشعره وشاربه وحاجبه قطن أبيض من الثّلج، وقف عليّ وأنا أبيع التّوابل وثمار الهند المجفّفة والنّباتات الطّبيّة، فقال لي بلسان عربي قحّ أفصح من لسان فقهائنا، وهو يتنفّس بتعب: هل عندك كتب ابن رشد؟ أجبته: لا أبيع الكتب..
قال: من أيّ بلد أنت، من قرطبة؟
قلت: نعم من قرطبة، من درب ابن زيدون... اشتعلت عيناه الطّافئتان كالشّرر، وانتظم تنفّسه، وكأنّ روح

الشّباب قد عادت إليه. فهجم عليّ بأسئلة : ما هي آخر أخبار ابن رشد؟ بلغنا أنّه في السّجن، هل صحيح؟ هل أحرق أميركم المنصور جميع كتبه؟ متى شرع في شرح كتاب الأخلاق لأرسطو؟ لو كانت عندك كتبه لاشتريتها بأغلى الأثمان، بالذّهب، بهذه الدّنانير المرابطية الثّقيلة ! انظر ! وأخرج من تحت مسوحه حفنة من الدّنانير المرابطيّة ذهبية خالصة ضربتني في القلب. قال : كتب ابن رشد أثمن بكثير من قناطيرك المنقطرة من الجلود! وقبل توديعه دعاني إلى تناول العَشاء في دَيْر المدينة، وما إن نزل اللّيل وصلّيت صلاة العِشاء حتّى ركبت إليه. فرحّب بي الرّاهب العجوز على عتبة مكتبة لم أشاهد في حياتي، وتجوالي، وتسكّعي في العالم أضخم منها ولا أعظم، قال : كتب ابن رشد هي أنفس مَن هذه الكتب الكثيرة، هي

أعزّ وأندر ! يا صاحبي، إذا رجعت
إلى إيكس لاشابال مرّة أخرى، وهو ما
أتمنّاه، فاحمل إلى متصرّف الدّيْر ـ هذا
الشّاب الواقف أمامك ـ كتب ابن رشد
لأنّي سأنقلب عمّا قريب إلى دار البقاء.
يا حسرتي، فلن أقرأها ! أحملها قبل
أن تسقط المدن الأندلسيّة الواحدة تلو
الأخرى ويشملها الظّلام، فعَظُم عليّ
هذا الموقف، فقلت له : إنّك توسّمت
فيّ الخير، وإنّي لأشكرك عليه، لكن،
أحبّ أن أعرف ما هي دواعي هذا
الإلحاح الشّديد في طلب كتب ابن
رشد؟ فأجابني وفتيلة شمعته قد زادت
توهّجا : أو لا تعلم أنّ في كتب ابن
رشد نورا لا تبصره إلاّ العقول، أنّ في
كتبه تفهّما وتسامحا وقبولا لبني الإنسان
لا ينكر ذلك إلاّ المتعصّب الأعمى،
أنّ فيها أملا عزيزا لبناء إنسان جديد لا
يكتب له الظّهور إلاّ بعد عشرات

السّنين. ها أنّي في قرطبة، وفي سوق الكتب، أبحث عن كتب ابن رشد، فلم أجد لها أثرا ولم أجد لكاتبها سمعة ولا ذكرا إلاّ بين القبور. وكأنّ هذه الكتب وهميّة، وكأنّ ابن رشد شخصيّة خرافيّة!

تونس 1989/ 1996

الفهرس

الباب الثالث

الباب الرابع

الرّشيد للطباعة والنشر
الهاتف : 148 731 - الفاكس : 479 730

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٨٧٠٧ / ٢٠٠٢




شذرات
من السيرة الرشدية
سيرة مسرحية
المجلس الأعلى للثقافة
طبعة خاصة
بمناسبة ندوة ابن رشد
نهاية قرن و بداية قرن
04493544